Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Science



جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

الأسرى المسلمون و الصليبيون و طرق معاملتهم بين الإطار القانوني و الواقع التاريخي ٤٩٠ ـ ٥٨٦ هـ/١٠٩٧ـ ١١٩١م

منى حماد

أستاذ مشارك
قسم التاريخ
الجامعة الأردنية
monahammad@hotmail.com

الأسرى المسلمون و الصليبيون و طرق معاملتهم بين الإطار القانوني و الواقع التاريخي

٤٩٠ ـ ٥٨٦ هـ/١٠٩٧ـ ١١٩١م

منى حماد

مستخلص

تتعرض هذه الدراسة لموضوع لعب دورا رئيسيا في حياة كل من المجتمع الإسلامي والمجتمع اللاتيني في الفترة المبكرة من الحروب الصليبية، أي من بداية وصول الحملة الأولى إلى المشرق الإسلامي (١٠٩٧)، وحتى سقوط عكا بيد ريتشارد قلب الأسد خلال الحملة الثالثة،(١١٩١). لقد تتبعت الدراسة طرق التعامل مع الأسرى عند الطرفين خلال [١]القرن الأول للوجود الصليبي في فلسطين وبلاد الشام، وتحليل العوامل والظروف التي تحدد مصير الأسرى، ونوعية الأسرى الذين سقطوا في أسر المسلمين والصليبين. قدمت الدراسة باختصار الرأي الفقهي الإسلامي فيما يتعلق بالتعامل مع الأسرى من الأعداء، وكيفية تفسير المسلمين لهذه الآراء في فترة الحروب الصليبية، فقد تبين أن المسلمين تأثروا بأسلوب الفرنجة الوحشي في التعامل مع الأسرى، من منطلق مبدأ المعاملة بالمثل. كذلك، عرضت الدراسة الرأي الكنسي المسيحي فيما يتعلق بمعاملة الأسرى، وإلى أي مدى التزم الفرنجة خلال الحملات الصليبية بهذه القوانين من جهة، وكيف تأثروا بالمقابل بطرق المسلمين الدبلوماسية في التعامل مع الأسرى، من جهة أخرى.

الكلمات الدالة: الأسرى، الصليبيون، المسلمون، تبادل الأسرى، معاملة الأسرى

The Exchange of Prisoners between Muslims and the Crusaders (1097-1191)

Mona Hamad

Abstract

This is an ongoing research project on the issue of prisoners during the Crusades. There is an evident lack of information in the sources on this issue, scarcity of modern scholarship on the subject and inconsistency of the reports written in the primary sources. The researcher was able to gather enough information to try to present a comprehensive synthesis on the subject. The study first attempts to define the principles that regulate the issue of prisoners in both Islam and Christianity, and show how these principles changed during the Crusades. Then, I discuss how prisoners were captured on both sides, the way they were treated and the status of different categories of prisoners, such as women and leaders mainly from among the Crusaders. Finally, I argue that both foes were influenced by the practices of the other party concerning the prisoners of war. The Crusaders learned the benefits of not killing prisoners; ransoming them or enslaving them for labor purposes. On the other hand, the Muslims began to imitate the cruelty towards prisoners just like the Crusaders used to do in the early period of the Crusades.

Key Words: Prisoners, the Crusaders, the Muslims, exchange of prisoners, the treatment of prisoners.

مقدمة

مع قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق ٤٩١هـ/١٠٩٨م، وجد المسلمون أنفسهم يواجهون عدوا لم يعهدوه من قبل أو يعرفوا عنه شيئا سوى أنهم فرنجة جاءوا من الغرب، فكانت أرض المعركة هي المكان الأول لمعرفتهم عن قرب.

لكن بعد أن استوطن الفرنجة في الشرق تأثروا بعادات وطبائع المسلمين وأظهروا رغبة شديدة في تعلم ثقافتهم، وسعوا إلى إنشاء علاقات دبلوماسية وفتح قنوات للتعامل معهم، فلم تكن العلاقات بين المسلمين والصليبيين (الفرنجة) دومـًا عدائية أو سلبية، وبالرغم من ذلك، فقد بقيت الحرب هي العامل المسيطر في العلاقات بين الطرفين خاصة في المرحلة المبكرة من الحملات الصليبية، ومع استمرارية المواجهة بين الطرفين ترتب على ذلك ضرورة التعامل مع قضية مهمة، وهي كيفية التعامل مع الأسرى والبحث عن وسائل لتحريرهم، وذلك إما باللجوء إلى المفاوضات الدبلوماسية أو دفع فدية تعتمد على أهمية ومكانة الأسير. فكان موضوع الأسرى دومـًا من أهم بنود المعاهدات بين المسلمين والصليبيين، سواءً فيما يتعلق بطرق تحرير الأسرى أو أخذ رهائن مقابل ضمان تنفيذ كل طرف لبنود الاتفاقية.

تطورت العلاقات بين المسلمين والصليبين وعقدت المعاهدات والاتفاقيات، التي كانت دوما في صالح الصليبيين حتى عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م تاريخ خضوع الموصل للقائد صلاح الدين الأيوبي، إذ بدأ ميزان القوى يرجح لصالح المسلمين ووصل أوجه في معركة حطين عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٧م واستعادة بيت المقدس.

كان الوقوع في الأسر خطرًا يهدد الجميع، وهو بالنسبة للأسير أسوأ من الموت إذا لم تسع الدولة لإنقاذه، وقد تعرض الفرنجة في الإمارات اللاتينية للوقوع في الأسر؛ إذ كانوا محاطين بالمسلمين من كل جانب، ولم يقتصر الوقوع في الأسر على الجنود بل شمل المدنيين سواء أكانوا مستقرين في مدنهم أم مسافرين ، كما استمرت الغارات على المناطق الحدودية من قبل المسلمين على الصليبين وبالعكس؛ بهدف الحصول على أسرى ورهائن وعبيد (Friedman,١٩٩٥:٧٧). ولأهمية قضية الأسرى عنيت كل من الشريعة الإسلامية والقوانين الكنسية Law Canon بتعريف الأسير وتحديد كيفية التعامل معه.

أسرى الحرب في الإسلام

يدعو الإسلام إلى التسامح والعفو، ولا يدعو إلى الذل والخضوع؛ لأن الله كتب لنفسه العزة ولرسوله والمؤمنين، وقد شرع الله الجهاد حتى تكون "كلمة الله" هي العليا ،فالمؤمن لا يقاتل شجاعةً، ولا حميةً، ولا رياءً، بل يقاتل لتأمين سبيل الدعوة والدفاع عن حرية العقيدة. ويترتب على ذلك وقوع الأسرى من الطرفين المتحاربين (عامر، ١٩٨٦م: ٦٣).

تعريف الأسير

الأسير لغة مأخوذ من الإسار وهو العقد الذي يشد به الشيء كالحبل أو السلسلة فيقال: أسره يأسره أسرا، أي شده بالإسار لئلا يفلت، وسمي كل أخيذ أسيرا وإن لم يؤسر. ويوصف بلفظ أسير كل من الرجل والمرأة فيقال: رجل أسير وامرأة أسير فيستوي فيه المذكر والمؤنث، ويجمع الأسير على أسَارَى (الرازي، ١٩٩٥م: ٧ ؛ عسلية، ٢٠١٠م).

أشار القرآن الكـريم لمسألة الأســر، والتعامل مع الأسرى في قوله تعــالى: " وَيُطعِمُونَ الطَّعام عَلَى حُبهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وأَسِيراً " *. وقال تعالى: " فإذَا لَقِيتُم الَّذِين كَفرُواْ فَضَرب الرقَاب حتَّى إذَا أَثْخَنتُمُوهُم فَشُدُّواْ الوثَاقَ فَإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا " *. وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم- لبعض أصحابه في أسرى بني قريظة، " أحسنوا أسراكم وقيلوهم واسقوهم "، وفي بـدر قال عليه الصلاة والسلام: " استوصوا بالأُسَارى خيرا " (البخاري، د.ت: ١٤٥). كما كان موقف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم- من الأسرى مرتبطاً بالظروف، وبوصفه إماماً لجماعة المسلمين، فقد قتل بعض الأسرى ومنّ على بعضهم الآخر، وقبل الفداء من الفريق الثالث (عامر، ١٩٨٦م: ٦٣).

وضّح الفقهاء كيفية التعامل مع الأسرى استنادا على ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ؛ فذكر ابن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء " (ابن كثير، ١٩٩٩م: ٤٥٤).* وقد ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك، حيث دعا إلى حماية الأسرى من الحر والبرد، وتوفير الرعاية الطبية لهم، ومتابعة قضاياهم، التجارية أو المدنية، مع دولهم أو عائلاتهم (ابن النحاس، ٢٠٠٢م: ١٠٤٥).

أما فيما يتعلق بمصير الأسرى، فقد اتفق الفقهاء على أن الحكم الشرعي الأصلي الذي يحدد مصير الأسرى هو المن أو الفداء، وواجب الإمام هو قبول عقد الذمة إذا طلبه الأسير؛ فإذا طلب الأسير أن يكون من رعايا الدولة الإسلامية، وله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، فعلى الإمام منح هذا العقد (الشيباني، ١٩٧٥م: ٦٩).

يرى أبو حنيفة ضرورة تطبيق مبدأ " المعاملة بالمثل " في

* الإنسان: الآية ٨.
* محمد: الآية ٤.
* اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز أسر أحد من دار الكفر إذا كان بين هذه الدار وبين المسلمين عهد موادعة ، لأن هذا العهد يفيد الأمان ، فيذكر ابن قدامة « أن الأمان إذا أعطي أهل الحرب حرم قتلهم ومالهم، والتعرض لهم ، وبهذا قال الثوري ، والأوزاعي، والشافعي ابن قدامة، ١٩٦٩م: ٢٤٤).

تبادل الأسرى وفي الفدية وما يتصل بها ؛ فعلى الإمام أن يعامل غير المسلمين الداخلين إلى دار الإسلام كما يُعامل المسلمون في دار الحرب (ابن هشام، د. ت: ٢٣). بالمقابل يرى الأوزاعي، والشافعي، ومالك أن أمر الأسرى يترك للحاكم، إن شاء قتلهم وإن شاء افتدى بهم (ابن قدامة، ١٩٦٩م: ٢٢٠). ويرى مالك أنه يجب على المسلمين فداء أسراهم وإن أستغرق ذلك أموالهم، وأكد الشافعي على ذلك بقوله أنه أنفع وأولى على المسلمين أن يفادوا أسرى الكفار بأسرى المسلمين وتخليص الأسير المسلم من يد الأعداء. فإن تم عن طريق الأسير نفسه سقط الإثم عن باقي المسلمين، وإن لم يحصل بقي المسلمون جميعهم مطالبين بهذا الواجب الديني (عسلية، ٢٠١٠م: ٥).

وفيما يتعلق بالأسرى النساء والصبيان، فقد اجتمع العلماء على تحريم قتلهم إذا لم يقاتلوا، فإن قاتلوا يقتلون (الشيباني، ١٩٧٥م: ١٠٤)؛ فعن سليمان عن الحسن البصري، قال:" نهى رسول الله عن قتل النساء والولدان " (الشيباني، ١٩٧٥م: ١٧٨). وفي حالة وقوع أسرى صليبيين من نفس العائلة (زوج أو زوجة)، كانت تجري مراعاة بقائهما معًا ، فإذا سبيت امرأة ثم أسر زوجها بعدها بيوم فإنهما يكونان على نكاحهما (الشيباني، ١٩٧٥م: ١٢٢). وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: " لا يحل لأمرئ أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها " (مسلم، ١٩٩٨م: ١٧٦).

أسرى الحرب في المسيحية

المسيحية ديانة ترفض العنف وتدعو مبادئها إلى التسامح. وقد أقر القانون الكنسي في بداية العصور الوسطى أن استعباد الأسرى هو عمل يتناقض مع روح المسيحية. ولكن في القرن الحادي عشر الميلادي حاولت الكنيسة من أجل خدمة مصالحها أن تسوغ العنف الذي أفرزه المجتمع الإقطاعي، واستغلال الطاقة القتالية للفرسان الإقطاعيين، فتطورت فكرة الحرب في عالم المسيحية، واعتبرت كأنها حرب مقدسة، يكافأ عليها الفارس بالشهادة أو الحصول على الغفران (سميث، ١٩٩٩م: ١٠٨ ؛ قاسم، ٢٠٠١م: ٤١).

وقد كانت الظروف التاريخية التي مرت بها أوروبا عشية قيام الحروب الصليبية، المتمثلة في الصراع بين المسلمين والمسيحيين في إسبانيا وصقلية، ثم تأسيس الإمارات اللاتينية في الشرق، قد تركت أثرها في تعديل القوانين السابقة التي اتسمت بالتسامح؛ إذ سمح القانون الكنسي للمسيحيين باستعباد غير المسيحيين وخصوصا المسلمين. وكان هناك تسويغ قانوني لاستعباد المسلمين؛ إذ أن الكنيسة تؤمن بأن المسيحيين هم أبناء سارة زوجة إبراهيم الحرة)، في حين أن المسلمين هم أبناء هاجر التي كانت جارية لإبراهيم، ولهذا فإنه يحق للمسيحيين استعباد المسلمين وأن يمنحوا حريتهم إذا تحولوا للديانة المسيحية (Brundage,1974:121).

لكن التطبيق العملي لهذه القوانين اعتمد على الفترة الزمنية والظروف المحيطة بها؛ فعلى الرغم من أن القانون في مملكة بيت المقدس نص على منح الأسرى حريتهم إذا قرروا اعتناق المسيحية، فإنه نادرًا ما كان يطبق، بل على العكس من ذلك، فهناك العديد من الإشارات التي تدل على أن مجموعة وثائق مملكة بيت المقدس سعت إلى تقييد هذا القانون، بل إن العديد من النبلاء الفرنجة رفضوا الاعتراف باعتناق عبيدهم المسلمين للمسيحية، حيث أنهم كانوا غير مستعدين لقبول فقدان سيطرتهم عليهم (Kedar,1990:54-153).

تُعد الحروب الصليبية (Crusade) حسب تعريف القانون الكنسي* هي حروب مقدسة، ولذلك لها شرعية ومسوغات دينية.

شُرّعت هذه الحروب ابتداءً ضد المسلمين، وبخاصة في الأراضي المقدسة، ثم اتسعت لاحقاً- القرن الثالث عشر الميلادي- لتشمل الحروب ضد الوثنيين وضد الهراطقة من المسيحيين، أو أي جماعة تعادي السلطة البابوية (Brundage,1974:124)؛ لهذا نجد أن القوانين المتعلقة بالتعامل مع الحروب ونتائجها بالنسبة للقوانين الكنسية تنبثق من هذه القاعدة، حيث سنت هذه القوانين لتؤكد حقوق المحاربين المسيحيين الصليبيين)، وتتجاهل حقوق أعداء المسيحية، وهم في هذه الحالة من المسلمين (Brundage,1974:121).

التعامل مع الأسرى في بداية الحملات الصليبية

اعتبرت الحروب الصليبية أسوأ أنواع الحروب الدينية التي تميزت بالتعصب والجهل والكراهية؛ حيث إن الصليبيين الأوائل الذين توجهوا للشرق ابتداءً من)٤٨٩هـ/١٠٩٦م) كانوا مشحونين بالحماس الديني من أجل إنقاذ الأماكن المقدسة من سيطرة المسلمين.

ومع بداية الاحتكاك على أرض المعركة بين المسلمين والصليبيين ظهر مدى جهل كل طرف بالآخر، وحددت الحرب وما ارتبط بها من قتل وتعذيب وأسر طبيعة العلاقة بين الطرفين خاصة في المراحل الأولى من الحملات الصليبية (Munro,1903:14).

ظهرت الملامح الأولى لتلك العلاقة من خلال قيام قادة الفرنجة بقتل كل من وجدوه من المسلمين؛ فيروي المؤلف المجهول*

* القانون الكنسي: هو مجموعة الأنظمة والقوانين التي صدرت عن المجمع الكنسي أو التي صدرت عن البابا. انظر: (www.Catholic Encyclopedia.com) .

* الكاتب المجهول هو أحد شهود العيان للحملة الصليبية الأولى ، وهو من عائلة نورماندية استقرت في جزيرة صقلية بعد غزو النورمان لها، وانضم إلى الفرقة الصقلية في الحملة.

(Peters,1971:5). الذي كتب الـ Gesta أعمال الفرنجة عن قيام القادة الفرنج بقتل المسلمين عندما دخلوا أنطاكيا " حتى إن من يمشي في شوارع المدينة لا يستطيع أن يتفادى الدوس على الجثث المنتشرة في كل مكان " (Krey,1962:108). كما قام الكونت ريموند الصنجيلي Raymond St.Giles* (Billings,1987:32) بقتل كل " العرب رجالاً ونساء، صغيراً وكبيرًا في معرة النعمان* Bara، وقام بوهمند Bohemond * أيضا بقتل معظم الأسرى "(Tudebode,1974:120).

وفي موقف آخر أظهر الفرنجة عدم احترام عهد الأمان، فعندما سقطت معرة النعمان في أيدي الصليبيين (٤٩١هـ / ١٠٩٨م) أرسل بوهند عبر أحد المترجمين حبراً إلى قادة المسلمين يعلمهم أنهم إذا أرادوا أن ينجو بحياتهم وأطفالهم وممتلكاتهم فعليهم أن يلتجئوا إلى قصر يقع فوق البوابة، ولكن ماأن اقتحمت قوات الفرنجة المعرة، حتى بدأ جنود الفرنجة بأخذ كل ما وقع تحت أيديهم من أملاك، ثم قاموا بذبح وقتل كل الرجال والنساء المسلمين الذين صادفوهم في المدينة، وقام بالقبض على الذين التجأوا إلى القصر، فقتل البعض وأخذ آخرين ليبيعهم كعبيد في أسواق أنطاكيا (Tudebode,1974:92) .

وتتكرر الأمثلة على سوء معاملة الفرنجة للمسلمين؛ ففي الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس لم يبدِ الفرنجة أي تسامح تجاه المسلمين، فبعد سقوط بيت المقدس٤٩٢هـ/١٠٩٩م يروي فوشيه الشارتري* أن " رجالنا قاموا بقتل الجميع في قبة الصخرة حوالي عشرة آلاف قطعت رؤوسهم حتى أن دماء الضحايا وصلت إلى ركب الخيل... ولم ير أحد أو شاهد مجزرة بهذا الشكل ضد الكفار" (Fulcher,n.d:96)، كما يذكر وليام الصوري (ت: ٥٦٩هـ/١١٧٤م)، الذي كتب تاريخ مملكة بيت المقدس بعد تأسيسها، بصورة مفصلة مشاهد المجزرة واعتبر ان هذا عقاب عادل من الرب وأن دماء المسلمين كان يجب أن تسفك لتطهر " الدنس الذي ألحقوه بالأماكن المقدسة" (Tyre,1943:18).

كان لقادة الفرنجة آراء مختلفة فيما يتعلق بمصير مدينة بيت المقدس ومن بقي فيها على قيد الحياة من السكان، فعلى الرغم من التوجه الشامل من قبل قادة الفرنجة نحو قتل المسلمين في المدينة المقدسة، إلا أنهم أبقوا على حياة عدد قليل من السكان من أجل التخلص من الجثث المتراكمة وغسل الطرق من بقايا الدماء في كل مكان. كذلك، أبقى القادة على الحامية الفاطمية ومنهم المحدث أبو القاسم الرحيلي، أشهر محدث في فلسطين، حيث طالب الفرنجة بفدية مقدارها ألف دينار مقابل إطلاق سراحه. ولكن عندما لم يصل المال في الوقت المحدد قاموا برجمه حتى الموت. وهناك دلائل تشير إلى أن بعض من نجا من مجزرة بيت المقدس نجح في الوصول إلى مناطق تحت حكم المسلمين، والبعض الآخر أخذ أسيراً (Kedar,1990:144 ؛ Sivan,1971,204 ؛ Sivan,1967,138).

وقد أصيب بعض القادة بالذعر لما اقترفه جنودهم من وحشية في تعاملهم مع المسلمين، ومن هؤلاء القادة تانكرد الأول* (ت:٥٠٦هـ/١١١٢م) (Billings,1987:71) - وهو نورماندي من جنوب إيطاليا ـ حاول أن يقنع قادة الفرنجة بأخذ المسلمين كأسرى بدلاً من قتلهم ولكنه لم يفلح؛ حيث إن المعارضة كانت قوية من قبل القادة والأمراء (Kedar,1990:145)

بعد سنوات من سقوط بيت المقدس، بدأت قضية التعامل مع الأسرى تأخذ طابعاً منظماً ؛ فبعد استيطان الفرنجة في الشرق واحتكاكهم بالمسلمين غيروا الكثير من عاداتهم، ومنها طريقة تعاملهم مع أسرى الحرب، حيث أخذوا بأساليب المسلمين الدبلوماسية في التعامل مع الأسرى، والتي فتحت الباب أمام خيارات أخرى لأسرى الحرب كبديل عن العبودية أو القتل. ومن هذه الخيارات الدخول في الإسلام الذي يؤهل الأسير للحصول على كافة حقوقه، أو الاستسلام والامتناع عن القتال وبالتالي الحصول على الحماية، وهذه أصبحت تدريجياً طريقة الأمم المتحضرة في التعامل مع الأسرى (Norman,1967:138)

يذكر فوشيه أنه بعد سقوط قيسارية (٤٩٤هـ/١١٠١م) " أبقى القادة على حياة بعض الأسرى من الرجال، وأبقوا على حياة عدد أكبر من النساء من أجل الاستفادة من خدماتهن في المصانع اليدوية. كما قاموا ببيع بعض النساء والرجال لشراء نساء جميلات، وأبقى الملك على حياة أمير المدينة وقاضيها طمعاً في الحصول على فدية لهم ". وبعد سقوط عكا (٤٩٧هـ/٢٦ ايار ١١٠٤م) قام الفرنجة بقتل العديد من المسلمين وأبقوا على حياة آخرين طمعا في الفدية، واستولوا على جميع ممتلكاتهم" Fulcher,n.d:154.

ومن الأمثلة على تغير طريقة تعامل الفرنجة مع الأسرى بعد تأسيس مملكة بيت المقدس يذكر فوشيه في وصف معركة قامت ضد المصريين بالقرب من الرملة عام ٤٩٨هـ /١١٠٥م)، وقد قتل قائد المسلمين هو والي عسقلان جمال الملك ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ٨٥). وأبدى فوشيه أسفه لمقتله بدلاً من أسره، لأن ذلك كان سيوفر للفرنجة مبالغ كبيرة كفدية له تدفع لملك بيت المقدس بالدوين الأول Baldwin *

* ريموند الصنجيلي: كونت تولوز ، وكان من أوائل القادة الفرنجة الذين استجابوا لدعوة البابا أوربان الثاني للمشاركة في الحملة الصليبية الأولى على الشرق، وكان رجلاً غنياً متمرساً ؛ حيث قاتل عدة مرات المسلمين في الاندلس توفي ١١٠٥م، وكان أكبر القادة عمراً.

* معرة النعمان: مدينة كبيرة وقديمة من أعمال حمص بين حلب وحماة. انظر: (الحموي، ١٩٨٦م: ١٥٦).

*بوهمند: هو ابن روبرت جسكارد النورماندي شارك معه بالحملة الفرنجية الأولى ابن اخته تانكرد، وكان يتبعه في القيادة واستطاع أن يجهز جيشاً كبيراً، ولم يخف أطماعه في رغبة السيطرة على أراضي في الإمبراطورية البيزنطية، وأصبح أميراً لأنطاكيا بعد سقوطها (٤٩١هـ /١٠٩٨م Peters,١٩٧١:٣٥).

* تانكرد الأول: شارك مع خاله بوهمند النورماندي في قيادة حملته إلى الشرق، ووصل مع بوهمند إلى القسطنطينية بعد خمسة أشهر من تاريخ انطلاق الحملة الصليبية الأولى ، توفي بعد انتهاء الحملة الصليبية الأولى ٥٠٦هـ /١١١٢م.

(١١٠٠-١١١٨م) (Billings,1987:68) ولكن فوشيه يرى أن حظ الفرنجة تحسن عندما ألقوا القبض على أمير عكا زهر الدولة بنا جيوشي (ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ٧٢) وطالب بالدوين بعشرين ألف قطعة من الذهب بالإضافة إلى الخيل وأمور أخرى كفدية له (Fulcher,n.d:59) في حين يذكر ابن الاثير (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، " أن أمير عكا بعد أن قاتل الفرنج قتالاً شديداً، فزحفوا إليه غير مرة فعجز عن حفظ البلد فخرج منه إلى دمشق فأقام بها ثم عاد إلى مصر واعتذر إلى الملك الأفضل فقبل عذره " (ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ٢٧).

اختلفت المصادر اللاتينية عن المصادر الإسلامية في وصف سقوط بعض المدن الإسلامية ،وكيفية تعامل الفرنج مع سكانها، ويظهر ذلك عند وصف سقوط جبيل* ثم عكا بأيدي الفرنجة سنة (٤٩٧هـ/١١٠٤م)، فيذكر وليام الصوري أن الفرنجة عرضوا على سكان المدينة الخيار في أن يغادروا مع زوجاتهم وأطفالهم أو يبقوا في المدينة مقابل شروط مناسبة لهم (دون تحديد هذه الشروط) Tyre,1943:499.

وقد سمح بالدوين Baldwin الأول ملك بيت المقدس للسكان المسلمين في عكا بالخروج مع نسائهم وأطفالهم وما يستطيعون حمله من متاع، ومن يختار منهم البقاء في المدينة فيبقون في منازلهم شريطة أن يدفعوا جزية سنوية للملك (Tyre,1943:455). بالمقابل يروي ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) عن محاصرة الفرنج لجبيل بقوله:" قاتلوا عليها قتالاً شديداً فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أمانًا، فلم تفِ الفرنج لهم بالأمان وأخذوا أموالهم واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب " وبعد ان أنتهوا من جبيل توجهوا إلى عكا، " وقد ملك الفرنج البلد بالسيف قهراً وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة " (ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ٧٢).

ومع توالي سقوط المدن الإسلامية بأيدي الصليبيين، نجد الفرنجة قد أخذوا توجهًا جديًدا في التعامل مع السكان المسلمين؛ إذ قاموا بتشجيعهم على البقاء في مدنهم من أجل العمل في الأرض أو في الصناعة، بعد أن كان مصير هؤلاء السكان الذين لم يغادروا مدنهم إما القتل أو الوقوع في الأسر والعبودية (Kedar,1990:142).

ومما يؤكد هذا التوجه عند الفرنجة يذكر ابن جبير في رحلته عن زيارته لتبنين*؛ فوجد أن سكانها كانوا يعيشون في أمان تحت حكم الفرنجة، إذ كانوا يؤدون للفرنجة نصف الغلة عند أوانها، وجزية على كل رأس دينار، بالإضافة إلى ضرائب أخرى على الأشجار والثمار (ابن جبير، ١٩٨٦: ٢٤٧).

تتكرر هذه الشروط في كل مدينة إسلامية يحاصرها الفرنجة وتطلب منهم الأمان. فأثناء حصار طرابلس (٥٠٢هـ/١١٠٩م)، عرض السكان المسلمون على الفرنجة الاستسلام مقابل منحهم الأمان للخروج بعائلاتهم وأملاكهم، ومن أراد البقاء منهم أن يحتفظ بأملاكه مقابل ضريبة ثابتة تؤدى سنويا وتدفع للكونت ريموند. ولاحقا استجاب الملك بالدوين لهذه الشروط التي كانت مرضية للجميع، وأقسم الطرفان على الالتزام ببنود هذه الاتفاقية (Tyre,1943:478).

وبعد الحصار الطويل لمدينة صور، سقطت المدينة في (٥١٧هـ/١١٢٤م) فاستنجد أهلها بالجيش الفاطمي وحاكم دمشق طغتكين*. ولكن وبعد فشل محاولات الاستغاثة، قام أهل المدينة بالتفاوض مع الفرنجة المحاصرين لهم وعرضوا عليهم تسليم المدينة مقابل إعطاء الأمان لمن أراد الخروج بأهله وماله، والسماح ببقاء من يرغب منهم. ولكن كما يشر جيب Gibb فأنه من المعتقد أن كثيراً من السكان اختار البقاء (Gibb,1939:172). إلا أن غالبية المقاتلين من الفرنجة لم تعجبهم بنود الاتفاقية مع المسلمين لأن هذا يعني حرمانهم من السلب والنهب والحصول على الغنائم (Tyre,1943:478).

وهناك العديد من الأمثلة على تغير أساليب الفرنجة في التعامل مع السكان المحليين المحاصرين لإدراكهم أن الاستسلام يعود عليهم بفوائد اقتصادية بعكس القتل أو الإبادة الجماعية، كما كان الوضع في بداية الحملات، ولعل حاجاتهم للأيدي العاملة من مزارعين وعمال من السكان المحليين كانت ضرورة ملحة. عند حصار رافانيا الذي استمر ١٨ يوما وانتهى في ٥٢٠هـ / ١١٢٦م، قرر الملك بالدوين الثاني ٥١٢- ٥٢٤هـ/١١١٨-١١٣٠م) وكونت بونز السماح للسكان بتسليم المدينة مقابل خروجهم بسلام دون التعرض لهم بأذى (Fulcher,n.d:294).

تبادل الأسرى:

بعد استقرار الفرنجة في الشرق بدأ يظهر تأثرهم بحضارة وثقافة أعدائهم المسلمين، ولعل من أبرز هذه التأثيرات الميل إلى ممارسة الدبلوماسية، واعتماد الوسائل السلمية للتعامل مع المسلمين، ومن أهمها قضية الأسرى، وإيجاد طرق عملية وإنسانية للتعامل معهم، ومنها استبدالهم بأسرى لدى الطرف الآخر أو افتداؤهم، أو تبادل الرهائن. ومن الملاحظ أنه لا تكاد تخلو أي معاهدة أو اتفاقية سلام بين الطرفين دون أن يكون

---

* بالدوين الأول: هو بلدوين البولوني من الأمراء الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى وكان من مرافقيه رجل الدين والمؤرخ فوشيه الشارتري ، أسس أول إمارة صليبية وهي إمارة الرها بعد الاستيلاء عليها ، واختير ملكاً لبيت المقدس خلفاً لأخيه جودفري عام ٤٩٣هـ/١١٠٠م، وبقي ملكاً على مملكة بيت المقدس حتى عام ٥١١هـ/١٠١٨م.

* جبيل: بلد في شرقي بيروت ، وهي على ثمانية فراسخ من بيروت ، ظلت بأيدي الفرنجة حتى فتحها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م الحموي، ١٩٨٦م: ١٥٦).

* تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بلد بانياس بين دمشق وصور. انظر: (الحموي، ١٩٨٦م: ١٤).

* طغتكين: هو الأتابك ظهير الدين ابو منصور طغتكين ، كان أتابك تتش بن الب ارسلان السلجوقي صاحب دمشق ثم أصبح أتابك دقاق بن تتش وبعد ان مرض دقاق عهد ولاية دمشق لطغتكين الذي أسس الدولة البورية في دمشق وحكم من (٤٩٧هـ- ٥٢٢هـ/١١٠٤-١٠٢٨م) (ابن القلانسي، ١٩٨٣م: ٢٣٣).

موضوع الأسرى هو البند الذي يحتل الأولوية القصوى. وفي حالات عديدة كان كل طرف يسعى لإطلاق الأسرى الموجودين لديه كبادرة حسن نية تجاه الطرف الآخر.

وهناك أمثلة كثيرة في المصادر الأولية تتعلق بمسألة تبادل الأسرى بين المسلمين والصليبيين منذ فترة مبكرة من وصول الصليبيين للشرق. ففي عام٤٩٢هـ /١٠٩٩م وأثناء حصار الفرنجة لطرابلس طلب حاكمها ابن عمار* من قادة الفرنجة رفع الحصار عن المدينة، ووقع اتفاقية مع ريموند الصنجيلى Raymond St.Giles، حيث قام ابن عمار بإطلاق سراح مائة أسير صليبي، كان قد أسرهم في معركة سابقة (Tudebude,1974:110).

وخلال حملات الملك عموري* (٥٥٨- ٥٦٩هـ/١١٦٣-١١٧٤م) المتكررة ضد مصر، حاصر الفرنجة مدينة الإسكندرية في عام ٥٦٢هـ/١١٦٧م، فقام شيركوه قائد القوات الفاطمية في مصر باستدعاء هيو القيصاري* Hugh of Caesarea الذي كان أسيراً لديه، وعرض عليه التوسط لدى الفرنجة من أجل رفع الحصار عن المدينة. ومن بين البنود التي عرضها شيركوه إطلاق ما عنده من أسرى الفرنجة مقابل إطلاق سراح الأسرى المسلمين الموجودين في أسر الفرنجة. ولكن هيو Hugh اعتذر بأدب لأنه خشي أن يبدو وكأنه يحاول تخليص نفسه وخدمة مصالحه أكثر من سعيه لخدمة المصلحة العامة للفرنجة. ولكنه عرض على شيركوه أن يوسط أسيرا آخر من الفرنجة عند الفاطميين وهو آرنولف* صاحب تل باشر Arnulf of Turbessel الذي كان قريبا من ملك الفرنجة عموري Amury، وتوصل الطرفان لاتفاقية يقوم بموجبها شيركوه بتسليم المدينة إلى عموري، وتمّ تبادل الأسرى بين الطرفين (Stevenson,1968:240).

ومن الجدير بالذكر أن وليام الصوري في حديثه عن الحملة التالية لعموري على مصر، انتقد قيام عموري بنقض الهدنة مع المسلمين، حتى أن فرسان الداوية* (مقامي، ١٩٩٤م: ٩) رفضوا المشاركة بهذه الحملة لما فيها من خرق للهدنة والاعتداء على قوة صديقة تعتمد " على حسن نوايانا والتزامنا ببنود الصلح". وهذا يعده وليام عملاً خاطئاً وغير عادل ومناقضًا لتعاليم المسيحية، حيث إن المصريين التزموا بالصلح ولا يستحقون هذه المعاملة العدائية (Tyre,1943:335). وهكذا قام عموري بمهاجمة بلبيس وتدميرها وقتل معظم سكانها دون تمييز بين الأطفال والنساء وكبار السن. ويذكر وليام أن من تمكن من الهرب من السكان سرعان ما وقع أسيرا بيد الفرنجة، وهذا " مصير يعده بالنسبة للرجال الشرفاء الأحرار أسوأ من الموت " (Tyre,1943:351).

يعد عصر صلاح الدين الأيوبي مرحلة مكثفة في مواجهة الصليبيين الذي توج بمعركة حطين ٥٨٢هـ/١١٨٧م واستعادة بيت المقدس. لهذا هناك معاهدات واتفاقيات عديدة عقدها صلاح الدين مع الصليبيين في الفترة ٥٦٩-٥٨٢هـ/ ١١٧٤-١١٨٧م) أثناء انشغاله في إخضاع القوى الإسلامية المعارضة له في سوريا والعراق.

ونلاحظ أنه حتى عام٥٧٨هـ/ ١١٨٣م بعد نجاح صلاح الدين في السيطرة على الموصل، كان ميزان القوى في صالح الفرنجة ويظهر هذا بشكل واضح في معاهدات الصلح بين الطرفين. ولكن وبعد ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م، بدأ الميزان يرجح لصالح المسلمين الذي وصل أوجه في معركة حطين. فبعد حطين والانتصارات المتتالية للمسلمين، وتوالي سقوط الإمارات الصليبية، نرى أن قضية الأسرى كانت من أهم البنود التي نصت عليها المفاوضات والاتفاقيات بين المسلمين والفرنجة.

ويروي العماد الأصفهاني ت:٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، أنه وبعد فتح تبنين، راسل صلاح الدين الصليبيين الذين طلبوا منه الأمان فيها، وبذلوا الرهائن من مقدمين الفرسان) وتقربوا بإطلاق سراح أسرى المسلمين. فأكثر ما كان يدخل السرور إلى قلب صلاح الدين هو إطلاق سراح أسرى المسلمين، فكان يقوم باستقبالهم بعد إطلاق سراحهم. وقد كان يُسرُّ بتحريرهم، ويقربهم ويكسوهم، " وهذا دأبه في كل بلد يفتحه، وملك يربحه أن يبدأ بالأسارى فيفك قيودها ويحيي بعد اليأس آمالها، ويوسع أرزاقها بعدما أطال عليها ضيق الأسر آجالها " (الأصفهاني، ٢٠٠٣م: ١٠٠).

ويضيف العماد الأصفهاني أن صلاح الدين حرر ما يزيد على ٢٠ ألف أسير من المسلمين، وبالمقابل أسر المسلمون ما يزيد على ١٠٠ ألف من الفرنجة (الأصفهاني، ٢٠٠٣م: ١٠١). فعندما أغار صلاح الدين على سبسطية في أواسط فلسطين عام٥٧٩هـ/١١٨٤م، استطاع أسقف المدينة أن يحافظ عليها من السقوط بإطلاق سراح حوالي ثمانين أسيرًا مسلما ، وبعد ذلك بثلاث سنوات أطلق سراح حوالي ٤ آلاف من أسرى المسلمين في عكا، و٥ آلاف في القدس Kedar،١٩٩٠:١٥٣))

* ابن عمار: هو فخر الملك أبو علي عمار بن محمد بن عمار من بني عمار حكم طرابلس في عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م ، تفاوض مع ريموند الصنجيلي حول تسليمه طرابلس (ابن القلانسي، ١٩٨٣م: ٢٢٦).

* الملك عموري: هو أخ الملك بالدوين الخامس ملك بيت المقدس الثالث ، كان كونت يافا وعسقلان ثم تولى حكم بيت المقدس في ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م بعد وفاة أخيه بالدوين الثالث وأصبح عموري الأول الملك اللاتيني السادس لمملكة بيت المقدس ، وقام بعدة حملات على مصر (زكار، ١٩٩٥م: ٢٥٣).

* هيو القيصاري :احد أتباع الملك عموري، أسر في عام ٥٦٢هـ/١١٦٧م عندما فشلت حملة عموري الأولى على مصر، وفي الحملة الثانية لعموري عام ٥٦١هـ/١١٦٨م أطلق سراحه وكان مسؤولاً عن المفاوضات مع السلطان الفاطمي Tyre،١٩٤٣:٣١٩)).

* آرنولف: هو بطريرك بيت المقدس (٥٠٤هـ -٥١١هـ /١١١١م- ١١١٨م) وكان له نفوذ قوي في الشؤون السياسية لمملكة بيت المقدس Stevenson،١٩٦٨:٤٣)).

* فرسان الداوية: فرقة رهبانية عسكرية تأسست عام (٥١٢هـ/١١١٩م)، وكانت مجتمعة حول المسجد الأقصى المعبد) Templars وكانوا من أشد المقاتلين المعادين للمسلمين.

وتشير هذه الروايات إلى أن أعداد الأسرى المسلمين عند الصليبيين كانت كبيرة.
بالإضافة لإطلاق سراح الأسرى، استمرت عملية تبادل الأسرى بين المسلمين والفرنجة، فبعد أن حاصر المسلمون حصن جبلة* عام ٥٨٣هـ/١١٨٨م ورد في اتفاقية الأمان أن يتم تبادل الرهائن، وأن يعيد الفرنجة رهائن المسلمين في أنطاكيا (الأصفهاني، ٢٠٠٣م: ٢٣٣). وأثناء حصار صلاح الدين القدس، أعلن سكانها الفرنجة أنهم سيقومون بإحراق المدينة، وقتل نسائهم خوفا من أن يقوم صلاح الدين بالانتقام منهم بسبب المجزرة التي ارتكبوها في بيت المقدس عام٤٩٢هـ/١٠٩٩م. كما هدّد أهلها بقتل من بأيديهم من أسرى المسلمين الذين كان عددهم ٥ آلاف أسير، فقرر صلاح الدين بعد مشاورة أمرائه أن يمنحهم الأمان (ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ١٥٦). ومن الجدير بالذكر أن المصادر العربية المعاصرة تشير إلى أن مجموع الأسرى المسلمين الذين تحرروا بعد معركة حطين من المدن والقلاع الصليبية قُدّر بحوالي عشرين ألف ٢٠,٠٠٠) أسير، وكان هذا العدد أكبر من عدد الأسرى المسلمين الموجودين في القدس وعكا، والذي كان يُقَدَّرُ بثلاثة إلى أربعة آلاف أسير (أبو شامة، ٢٠٠٢م: ٩٥ ؛ Lev, 2001: 25).
وبالرغم من تسامح صلاح الدين مع الفرنجة ومعاملته الإنسانية لأسراهم، فقد جعل إطلاق سراح أسرى المسلمين من أهم أولوياته، إلا أن الفرنجة لم يتعاملوا بالمثل مع المسلمين، وغالبا ما كانوا ينقضون العهود ويتربصون الفرصة المواتية للانتقام من أسرى المسلمين. وهذا يظهر جليا فيما ارتكبه ريتشارد قلب الأسد في أسرى المسلمين بعد أن سقطت مدينة عكا بيده عام ٥٨٦هـ/١١٩١م، وبعد أن أعطى الأمان لسكانها بموجب اتفاقية عُقدت مع صلاح الدين نصت على أن يقوم المسلمون بتسليم المدينة لريتشارد مقابل مئتي ألف (٢٠٠,٠٠٠) دينار، وإطلاق سراح ٥٠٠ أسير وإعادة صليب الصلبوت. وبعد أن سلم المسلمون المدينة طالبوا الفرنجة بإطلاق سراح الأسرى، فكان رد ريتشارد بأن أمر باستعراض الأسرى ثم قتلهم على مرأى صلاح الدين وجيشه، وأبقى فقط على الأمراء والمقدمين ومن له مال يفتدي به نفسه. وكان رد صلاح الدين بأن أعاد المال ورد أسرى الفرنجة وصليب الصلبوت إلى دمشق (الأصفهاني، ٢٠٠٣م: ٥٢٩ ؛ ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ١٩٦).
يبدو أن المسلمين مع تكرار نقض المعاهدات من قبل الفرنجة، وارتكاب المجازر ضد السكان المسلمين ومن بأيديهم من الأسرى، تأثروا بممارسات الفرنجة، وبدأوا بالتعامل بالمثل وخصوصا مع الأسرى. والمثال على ذلك، أنه بعد سقوط يافا بيد المسلمين (٥٨٦هـ/١١٩١م)، طلب أهل القلعة من المسلمين الأمان من القتل "خاصة دون الأسر"، وقدموا ١٠٠ رهينة من الفرسان المهمين. ولكن الفرنجة غدروا مرة أخرى فقام قائد قوات صلاح الدين (الخادم) والذي لعب دورًا كبيرًا في فتح بيت المقدس (أبو شامة، ٢٠٠٢م: ٩٧) باسترقاق الرهائن وقادهم إلى دمشق موثقين بالقيود (الأصفهاني، ٢٠٠٣م: ٦٠٧).

افتداء الأسرى:

يُعد افتداء الأسرى واجبًا دينيًا في الإسلام، وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تنص على افتداء الأسرى الموجودين في أسر الصليبيين . ويرى الفقهاء أنه يجب الإنفاق من مال الزكاة لمساعدة الأسرى والرقيق المسلمين لافتداء أنفسهم. ومن جهة أخرى فإن المجتمع الإسلامي تعاون من أجل افتداء أسرى المسلمين من الفرنجة. وكان المقتدرون من المسلمين يتسابقون من أجل افتداء الأسرى. ومن الأمثلة على ذلك سعى أسامة بن منقذ إلى افتداء أسرى من الحجاج المسلمين من شمال إفريقيا الذين وقعوا في أسر الفرنجة (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ١١٠). وهناك أيضا القاضي الفاضل الذي قام بتخصيص وقف لافتداء أسرى المسلمين، وكرس عائدات أحد الخانات التي كان يملكها في القاهرة لهذا الغرض (الصفدي، ١٩٩٧م: ٣٤٥ ؛ Lev, 2001: 25).
ونرى في الوقت نفسه أن الديانة المسيحية تعتبر أن افتداء الأسرى عمل خيري وواجب ديني على كل مسيحي. ومن الواضح أن الدين في العصور الوسطى كان له تأثير كبير في تصرفات الأفراد والمجتمعات والدول وخاصة فيما يتعلق بموضوع تحرير الأسرى إما بالتبادل أو الافتداء. فالقادة من كلا الطرفين؛ مسلمون وصليبون، اعتبروا أن واجبهم الديني يحتم عليهم السعي لتحرير أسراهم. هذه التصرفات كانت مدفوعة بمزيج من الدوافع، الدينية والإنسانية والسياسية والدعائية. ولم يكن عامل الدين دوما هو الدافع الرئيسي، بل على العكس من ذلك، فكثيرا ما كانت الدوافع الاقتصادية والسياسية أقوى من التعاليم الدينية (Lev, 2001: 27).
يورد وليام الصوري ومؤرخو الحملة الصليبية الأولى العديد من حالات الافتداء وتبادل الأسرى منذ الفترة المبكرة في تاريخ الحملات. فبعد سقوط أنطاكيا ٤٩١هـ/١٠٩٨م، أسر أحد النبلاء الفرنجة ويدعى وليام زوجة ياغي سيان حاكم المدينة، واثنين من حفدتها أبناء شمس الدولة*. فعرض شمس الدولة مبلغا كبيرا من المال مقابل إطلاق سراحهم Tyre,١٩٤٣:٣٠٩). وعند حصار مدينة برقة* بالقرب من

* جبلة: مدينة تقع على شاطئ البحر المتوسط، تتبع محافظة اللاذقية ، تمتد على السفح الغربي لجبال اللاذقية ، وبذلك تجمع بين السهل والجبل، يجاورها شمالاً منطقة القرادحة، و اللاذقية، وشرقاً حماه، وجنوباً طرسوس، وغرباً البحر المتوسط (طلاس، ١٩٩٣م: ٦٣٠).
* شمس الدولة: هو شمس الدولة أحمد أمير قلعة أنطاكية ، تنازل عن القلعة للصليبيين عام ٤٩١هـ/١٠٩٩م مقابل خروجه من القلعة بأمان. انظر: Gesta (1962: 95).

طرابلس عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، علم الفرنجة بوجود أسرى لهم في أيدي المسلمين في طرابلس عددهم يزيد على ٢٠٠ أسير كانوا قد وقعوا في الأسر أثناء حصار الفرنجة لأنطاكيا أثناء تجوالهم للبحث عن الطعام دون أخذ الاحتياطات اللازمة. وعندما علم حاكم طرابلس ابن عمار بقرب وصول قوات الفرنجة لمدينته فاوض الفرنجة ودفع لهم مبلغًا كبيرًا من المال وأطلق سراح من كانوا لديه من الأسرى الفرنجة (Tyre,1943:318).

وعلى الرغم من أن الافتداء أصبح عرفًا يتبعه الطرفان عوضًا عن القتل وخاصة بعد مدة من استقرار الفرنجة في الشرق، إلا أن الاستسلام للعدو كان يعد جبنًا وبالذات عند الفرنجة. ويروي ريموند آوغلية Raymond Augliers، أنه وأثناء تقدم قائد الفرنجة ريموند الصنجيلي Raymond St. Giles, في بلاد الشام استولى على مدينة البارة* جنوب غرب أنطاكيا في ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، وعندها قام بذبح الآلاف من السكان، والقى القبض على آلاف أخرين ليباعوا كعبيد في أنطاكيا، وأطلق سراح " الجبناء الذين استسلموا له قبل سقوط المدينة ليفتدوا أنفسهم " (Augliers,1963:73).

بالمقابل يروي أسامة بن منقذ ت: ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) أنه بعد سقوط كفرطاب* بيد المسلمين في ٥٠٩هـ/١١١٥م فاوض المسلمون الفرنجة من أجل افتداء أسراهم، وطلبوا فداء أحد فرسان الفرنجة بـ ٦٠٠ دينار فرفض. وهكذا قرر المسلمون اقتياد الأسرى الصليبيين معهم، " كل اثنين مقيدين بالسلاسل، واقتسم الأمراء الأسرى وأبقوهم على قيد الحياة للافتداء أو لشراء أنفسهم، إلا أن أمير الجيوش قتل حصة من الأسرى " (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ٩٨).

يرى أسامة بن منقذ أن افتداء الأسرى واجب ديني، ويروي لنا في سيرته العديد من الأمثلة التي تدلل على سعيه لافتداء أسرى المسلمين من الفرنجة، وقد استغل صداقته مع ملك الفرنجة بالدوين الرابع* BaldwinIV ٥٩٦ - ٥٨٠هـ / ١١٧٤- ١١٨٥م) لتسهيل تلك المهمة. وفي أحيان عديدة كان الملك والأمراء الصليبيون يعرضون على أسامة افتداء الأسرى المسلمين لديهم. فكان أسامة يفتدي بعضهم لعدم القدرة على افتدائهم جميعا، وتصف المصادر ذلك بتعبير "منهم من سهل الله تعالى خلاصهم" (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ١٠٥). وفي حادثة أخرى ذكر أسامة بن منقذ عن استيلاء وليم جوردان وهو أحد قادة الفرنجة على مركب فيه حجاج مغاربة، فأسر ٤٠٠ رجل وامرأة، فاشترى أسامة منهم ما أمكنه وما توفر معه من مال. وفي وصف هذه الحادثة يذكر أسامه أنه " كان فيهم رجل شاب يسلم ويقعد لا يتكلم، فسألت عنه فقيل لي هو رجل زاهد صاحبه دباغ. فقلت: بكم يبيعني هذا؟ قال:" وحق ديني ما أبيعه إلا هو وهذا الشيخ جملة كما اشتريتهما بثلاثة وأربعين دينارا." فاشتريتهما واشتريت لي منهم نفرا، واشتريت للأمير معين الدين أنر منهم نفرا بمائة وعشرين دينارا" (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ١٠٥).

ويذكر ابن جبير أن أغنياء بلاد الشام كانوا يخرجوا من أموالهم وصية لافتداء أسرى المسلمين وخاصة المغاربة لبعدهم عن ديارهم وأهلهم. واهتم نورالدين زنكي كل الاهتمام بفك الأسرى حيث دفع ١٢ ألف دينار، وكان قد نذر هذا أثناء مرضه، لافتداء الأسرى المغاربة. وعندما أطلق سراحهم مع مجموعة من الشاميين، أعادهم نورالدين، وأخرج عوضا عنهم المغاربة لاعتقاده أن الأسرى الشوام " يفكهم أهلوهم وجيرانهم، أما المغاربة فغرباء لا أهل لهم" (ابن جبير، ١٩٨٦: ٢٥٣). ولم يقتصر افتداء الأسرى على القادة، بل ساهم المقتدرون من التجار وكل من يملك القدرة المالية في افتداء الأسرى المسلمين. ويؤكد ابن جبير أن طائفة من تجار دمشق نذروا أموالهم لافتداء الأسرى المغاربة (ابن جبير، ١٩٨٦: ٢٥٣).

افتداء القادة:

كان أسر القادة ثم افتداؤهم من أهم المكاسب المادية التي قد يحققها أي من الطرفين المتقاتلين. وما يثير الاهتمام أن المسلمين ومنذ فترة مبكرة من الحملات الصليبية قد أسروا العديد من ملوك وأمراء الفرنجة أثناء المواجهات العسكرية بينهما، بالمقابل لا نجد في المصادر إشارة لوقوع أي قائد أو أمير مسلم في الأسر. وعلى الرغم من عدم وجود إجابة مؤكدة لتفسير هذه الظاهرة. إلاّ أن بعض المؤرخين المعاصرين ومنهم محمود عمران يرى ان السبب في عدم وقوع القادة المسلمين في الأسر، يعود إلى معرفتهم التامة بطبيعة الأراضي التي دارت فيها المعارك، بالإضافة إلى متابعة القادة المسلمين لتحركات الفرنجة مقدما، إذ كان لدى المسلمين استخبارات متقدمة، وهذا ما مكنهم من الاستعداد لمواجهة الصليبيين وقتالهم في الوقت المناسب (عمران، ٢٠٠٨م: ١١٤).

لكن هذه التفسيرات لا تجب بشكل قاطع على حدوث تلك الظاهرة؛ إذ إن معظم القادة كانوا على معرفة بمناطق القتال ولا يوجد في المصادر ما يؤكد اقتصار الاستخبارات على المسلمين.

---

* برقة: قرية تقع على السفوح الدنيا الغربية لجبال اللاذقية، وتتبع ناحية القطيلبية، ومنطقة جبلة، واللاذقية ، وتجري في شمالها وغربها ساقية برقة، وتقع بمحاذاتها من جهة الشرق قلعة أثرية تسمى باسمها. انظر: (طلاس، ١٩٩٣م: ٢٨٤).

* البارة: بلدة من نواحي حلب وبها حصن وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة. أنظر: ياقوت ، معجم البلدان، ج١، ص٣٢٠؛ فهي قرية تقع في جبل الزاوية وتتبع ناحية إحسم ، وإدلب ، تمتد شمالاً باتجاه طريق احسم ، ويعمل سكانها بزراعة الحبوب والكرمة والتين والكرز. (طلاس، ١٩٩٣م: ٢٣١).

* كفرطاب: هي مدينة تقع بين المعرة ومدينة حلب (الحموي، ١٩٨٦م: ٤٧٠).

* بالدوين الرابع: تولى حكم مملكة بيت المقدس بعد عام ٥٩٦هـ/ ١١٧٤م، وتوفي عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م. انظر: http://www.britannica.com/EBchecked/topic/50076/Baldwin-IV

بل على العكس من ذلك نرى أن الفرنجة كانوا يجمعون المعلومات مسبقًاعن تحرك المسلمين، كما استخدموا الأسرى ورعاة الأغنام من البدو للحصول على معلومات عن الجيش الإسلامي (Gesta,1962:396) فساعدهم ذلك في بناء قاعدة معلومات عسكرية فائقة الدقة. إلا أن أحد التفسيرات يرجع السبب إلى طبيعة الخطط العسكرية القتالية للمسلمين التي كانت تعتمد على أسلوب الحركة السريعة، وأسلوب الكر والفر، بعكس الفرنجة الذين كانوا يعتمدون نظام الصفوف المتراصة.

كان بوهمند حاكم أنطاكيا من أوائل القادة الصليبيين الذين وقعوا في أسر المسلمين عام ٤٩٣هـ/١١٠٠م؛ حيث أسره الأمير كمشتكين* بالقرب من ملطية، وبعد أن قضى ٣ سنوات في الأسر عرض بوهمند على كمشتكين أن يطلق سراحه مقابل دفع فدية تقدر بمائة ألف دينار، وأن يطلق سراح ابنة ياغي سيان التي كانت في أسره ، وتمّ إطلاق سراح بوهمند في عام (٤٩٥هـ/ ١١٠٢م) (عمران، ٢٠٠٨م: ٦٣).

وبعد عام من إطلاق سراح بوهمند تمّ أسر بالدوين دي بورج* Baldwin de Bourge وجوسلين* Joscelin ابن عمته ، وصاحب تل باشر* ورئيس أساقفة الرها، وعدد كبير من الفرسان الصليبيين على أثر هزيمتهم أمام المسلمين تحت قيادة جكرمش* حاكم الموصل وسقمان بن أرتق* صاحب ماردين في معركة حران (٤٩٧هـ/١١٠٤م) (Fulcher,n.d:178). وبالكاد استطاع كل من بوهمند وتانكرد الفرار دون معرفتهم بأسر بالدوين وجوسلين.

ويذكر فوشيه أن بالدوين قضى خمس سنوات في السجن، ثم عرض على المسلمين تقديم رهائن ، ولكن هؤلاء الرهائن تمكنوا من تحرير بالدوين بعد أن قتلوا الحراس، والفضل في ذلك يعود إلى جوسلين الذي أُطلق سراحه قبل بلدوين Fulcher,n.d:172)، بالمقابل ذكر ابن الأثير أن الذي أطلق سراح جوسلين هو جاولي* حيث فدى جوسلين نفسه بعشرين الف دينار واتجه إلى قلعة جعبر التي كان قد أخذ اليها بالدوين . وهناك التقى بالدوين الثاني بجوسلين الذي جعل نفسه رهينة مقابل إطلاق بالدوين، وفيما بعد وضع كل من شقيق زوجة جوسلين، وشقيق زوجة بالدوين كبديل لجوسلين ، وعلى أن يدفعوا لإطلاق سراح رهائنهم أموالاً، إضافة لإطلاق سراح أسرى مسلمين، فأطلقوا مئة وستين أسيرًا من سواد حلب، ثم أطلق سراح خلق كثير من الأسرى المسلمين من حران وذلك في ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م (ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ١٢٦).

ومن القادة الصليبيين الذين وقعوا أسرى في يد المسلمين روبرت الأبرص صاحب حصن زردنا* ورينو مازوار* كنسطبل أنطاكية. ففي عام ٥١٢هـ/١١١٩م وقعت معركة دامية بالقرب من حلب عرفت باسم معركة دانيث أو حقل الدم لكثرة من قتل من الفرنجة، حيث قاد طغتكين وإيلغازي القوات الإسلامية التي قضت على معظم الصليبيين. وفي هذا الصدد يذكر ابن العديم أن أكثر من ١٥ ألف فرنجي قتل ولم يبق منهم إلا ٢٠ (ابن العديم، د. ت: ٥٧٠). وكان روبرت الأبرص قد عرض على إيلغازي أن يطلق سراحه مقابل ١٠,٠٠٠ دينار. ولكن إيلغازي كان يطمع في المزيد، فأخذه إلى طغتكين لإخافته، فيزيد في الفدية، ولكن وكما يروي ابن منقذ أن طغتكين كان تحت تأثير الخمر فأخذ سيفه وضرب عنق روبرت، وهذا أحزن إيلغازي الذي كان يطمع في الحصول على المال. فعتب إيلغازي على طغتكين وقال له: " نحن محتاجون إلى دينار واحد للتركمان. وحين عاتبه إيلغازي وقال له أنفذته إليك كي تفزعه لعله يزيد في الفدية، فقتلته "، فرد عليه طغتكين " أنا ما أحسن أفزع إلا كذا " (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ١٠٥).

لم يقتصر الوقوع في أسر المسلمين على القادة والأمراء، فبعد ان قام نور الدولة بلك بأسر جوسلين أمير الرها مع قريبه جاليران Galeran صاحب البيرة بالقرب من سروج ٥١٥هـ/١١٢٢م) Fulcher,n.d:237) يذكر ابن العديم أن جوسلين وجاليران تمّ اقتيادهما بالسلاسل إلى بلك، الذي طلب منهما تسليم ما بيدهم من معاقل وبخاصة الرها، ولكنهما رفضا. فقام بلك بإذلال جوسلين ووضعه ومعه جاليران في جلد جمل وخاطه

* كمشتكين : هو الأمير كمشتكين بن الدانشمند طايلو، وقد قيل له ابن الدانشمند لأن أباه كان معلماً للتركمان، وقد أصبح حاكم ملطية وسيواس ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ٢٩).

* بالدوين دي بورج: وهو ابن عم الملك جودفري الحاكم الأول لبيت المقدس، وابن عم بالدوين الأول الحاكم الثاني لبيت المقدس كان كونت على الرها في الفترة ٤٩٣-٥١٢هـ/ ١١٠٠-١١١٨م)، ثم أصبح يعرف بـ بالدوين الثاني) ثالث ملك لمملكة بيت المقدس ١١١٨- ١١٣٠م). انظر: http://www.britannica.com/EBchecked/topic/50057/Baldwin-II)).

* جوسلين: هو ابن عمة الملك بالدوين دي بورغ الثاني ملك بيت المقدس ، فبعد وصول بالدوين الثاني إلى العرش ١١١٨م استدعى قريبه اللورد جوسلين الذي أصبح متنفذاً ، وعهد اليه بالمسؤولية الكاملة عن كونتية الرها وتل باشر في عام٥١١هـ/ ١١١٨م. انظر: (ابن العديم، د. ت: ٢٧٥).

* تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب، بينها وبين حلب يومان. انظر: (الحموي، ١٩٨٦م: ٤٠).

* جكرمش: هو شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر من ديار بكر ، ثم أصبح حاكم الموصل سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م بعد أن حصرها أياماً ثم تسلّمها صلحاً وأحسن السيرة فيها. انظر: (ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ٥٥).

* سقمان بن ارتق: هو معين الدولة سقمان بن ارتق كان حاكم ديار بكر، اشترك مع جكرمش في قتال الفرنج وقد كان بينهما حرب، لكنهما تحالفا وسارا للقاء الفرنج في سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م وانتصرا على الفرنج. انظر: (ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ٤٧).

* جاولي: هو جاولي سقاو، كان أمير البلاد التي بين رامهرمز وأرجان، وأقام بها سنين وعمّر قلاعها وحصّنها وأساء السيرة في أهلها، ثم أُقطع الموصل وديار بكر والجزيرة كلها من السلطان محمد في ٥٠٠هـ/١١٠٦م. انظر: (ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ١٢٦).

* زردنا: بليدة تقع في الناحية الغربية لمدينة حلب. انظر: (الحموي، ١٩٨٦م: ١٣٦).

* رينو مازوار: صاحب كيسوم قتله نورالدين زنكي مع ريموند أمير أنطاكيا بالقرب من حمص عام ٥٤٣هـ/١١٤٩م.

عليهما، وسار بهما إلى الرها ليطالب أهلها بالتسليم ولكنهم رفضوا، فأخذهما بلك ووضعهما في قلعة خرتبرت*، حصن زياد بالقرب من الرها (ابن العديم، د. ت: ٢٠٦). ويرسم وليام الصوري صورة مختلفة لتعامل زنكي مع الملك، حيث عامله بإنسانية وأطلق سراحه، كما قام بإطلاق سراح ريموند وكل من لديه من أسرى الفرنج من منطلق احترامه للملك، وقد سُر الفرنجة حسب تعبير وليام، سروا كثيرا بهذه المعاملة وعجبوا أن " تصدر معاملة تتسم بهذا القدر من الإنسانية من شخص اشتهر بالقسوة " (Tyre,1943:91).

وقع بالدوين الثاني الذي أصبح ملك بيت المقدس ٥١٣هـ/١١١٨م بيد المسلمين عام (٥١٦هـ /١١٢٣م). ومن اللالفت للنظر أن كليهما قد وقع في الأسر سابقاً في معركة حران عام ٤٩٧هـ/١١٠٤م.سار بالدوين الثاني إلى الرها ووضعها تحت وصايته. وأثناء وجود بالدوين بالقرب من كيسون* وسمسياط* حيث عسكر هناك دون أن يدري أنه يعسكر بالقرب من معسكر بلك. حاصرتهم قوات المسلمين في ربيع ٥١٦هـ/١١٢٣م، فقُتل عدد كبير منهم وهرب عدد آخر، ووقع بالدوين أسيرا بيد بلك، الذي سيره مقيدا بالسلاسل إلى قلعة خرتبرت حيث يوجد جوسلين (ابن العديم، د. ت: ٢١١). وأصيب الفرنجة بحزن شديد لسقوط الملك وجوسلين، في حين يذكر فوشيه أن هذا الحدث جلب السعادة والفرح للوثنيين يقصد المسلمين)، في الوقت الذي كان ذلك حدثا رهيبا وكارثة للفرنجة (Fulcher,n.d:240).

يذكر ابن القلانسي ت: ٥٥٥هـ/١١٦٠م) أن الملك بالدوين الثاني وجوسلين، وغيرهم من الأسرى الفرنج الذين كانوا أسرى لدى الأمير بلك قد استعملوا الحيلة فيما بينهم فظهروا وملكوا القلعة في ٥١٧هـ/١١٢٤م، لكن الأمير بلك رجع بعسكره واستعادها من الفرنج (ابن القلانسي، ١٩٨٣م: ٣٣٣).

وقد بيّن كل من وليم الصوري وفوشيه أن تدبير الخطة جاء من عناصر أرمنية تراوح عددهم بين ٢٠-٥٠، حيث تظاهر هؤلاء بأنهم مظلومون يريدون مقابلة الحاكم لينصفهم وهم متنكرون في زي رهبان، وكانوا يخفون أسلحتهم تحت ملابسهم. وقد نجح هؤلاء في الانقضاض على الحراس وحرروا الملك ورفاقه من أغلالهم، فاستولى الملك بمساعدتهم على القلعة (Tyre,1943:542؛ Fulcher,n.d:247). وقد أرسل الفرنجة جوسلين لطلب المساعدة بعد وصوله بمساعدة الأرمن إلى تل باشر، إلا أن بلك عندما علم باستيلاء الفرنجة على قلعة خرتبرت اتجه مسرعا للوصول إليها قبل وصول قوات النجدة الصليبية. وبالفعل تمكن بلك من الوصول قبل الصليبيين إلى خرتبرت، فحاصرها وضربها بالمنجنيق حتى نجح في تحطيم باب القلعة وطلب من بالدوين ورجاله الاستسلام، ووعده بأنه إذا سلم القلعة سيطلق سراحه وكل من معه من الأسرى، وسيوفر له الحماية حتى يصل إلى الرها. ولكن بالدوين كان على ثقة بقرب وصول جوسلين مع النجدة فرفض عرض بلك. غضب بلك من رده وقام بتدمير القلعة. عندها اضطر بالدوين ومن معه للاستسلام دون شروط (Fulcher,n.d:٢٥٣؛ Tyre,١٩٤٣:٥٤٤).

يذكر فوشيه أن بلك تصرف بإنسانية مع بالدوين الثاني فأطلق سراحه وابن عمته وجاليران، وأرسل معهم من يصحبهم إلى حران قرب الرها. لكن هذه المعاملة الإنسانية لم تشمل الأرمن الذين غامروا بحياتهم لإنقاذ الملك، فقد كان مصيرهم القتل والتعذيب، بعضهم أحرق حيا ، وآخرون شنقوا وهناك من قطع نصفين بسيف بلك، وبلغ عدد الأرمن الذين قتلوا ٨٠ رجلا و٦٥ امرأة وعلق رؤوسهم على أسوار القلعة (Fulcher,n.d:254). بالمقابل يذكر ابن العديم أن بلك قام باعتقال بالدوين وابن عمته ثم نقلهم إلى حلب، وقام بقتل كل من كان في خرتبرت من أصحاب بلك ومن الفرنجة ابن العديم، د. ت: ٢١٣). وكان قتل النساء دليلاً على دورهن في المؤامرة وقيامهن بإغواء الحراس المسلمين داخل القلعة تسهيلا لمهمة الأرمن (ابن العديم، د.ت:٢١٣ ؛ Fulcher,n.d:254).

بعد فشل تحرير بالدوين الثاني من الأسر، قام بلك بنقله إلى حلب حيث سجن في قلعتها، ولكن بلك قُتل أثناء قتاله الفرنجة بقيادة جوسلين في ٥١٨هـ/ ١١٢٤م قتل وخلفه ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي* الذي قام بالتفاوض مع الفرنجة لافتداء بالدوين (ابن العديم، د. ت: ٥٨١).

كان أبو العساكر سلطان بن علي بن منقذ* يقوم بدور الوسيط بين تمرتاش والفرنجة، وتوصل الطرفان إلى اتفاقية أُطلق بموجبها سراح بالدوين مقابل ٨٠ ألف دينار يدفع منها ٢٠ ألفًا مقدما ، وتسليم أربعة قلاع هي: الأثارب، وزردنا، وكفر طاب، وعزاز (ابن العديم، د. ت: ٥٧٠ ؛ ابن منقذ، ١٩٣٠م: ١٠٥). ولضمان تنفيذ الاتفاقية قدم بالدوين رهائن من بينهم ابنته Joveta ذات الخمسة أعوام وابن جوسلين أمير الرها وحوالي ١٥ رهينة أخرى (Fulcher,n.d:272) ؛ (Tyre,1943:21).

وبعد تسليم الرهائن والفدية فك تمرتاش قيود بالدوين، واستقبله بما يليق به كملك، فأطعمه وكساه، وخلع عليه كسوة ملكية، وقلنسوة ذهبية، وأعاد له حصانه الذي كان يركبه

* خرتبرت: حصن يقع في أقصى ديار بكر من بلاد الروم، بينه وبين ملطية مسيرة يومين وبينهما الفرات. انظر: (الحموي، ١٩٨٦م: ٣٥٥).
* كيسون: وهي قرية مستطيلة من أعمال سمسياط ، وفيها حصن كبير على تلة. أنظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩٧. وتقع إلى الغرب من مجرى نهر العاصي. انظر: طلاس، ١٩٩٣م: ١٠٤).
* سمسياط: هي مدينة تقع على شاطئ الفرات في طرف الروم على غربي الفرات ، وكان لها قلعة في شق منها يسكن الأرمن الحموي، ١٩٨٦م: ٢٥٨).
* تمرتاش بن الغازي: هو حسام الدين تمرتاش بن نجم الدين الغازي بن ارتق صاحب حلب ، وقد تملّك تمرتاش قلعة ماردين سنة ٥١٦هـ بعد وفاة والده، ثم أصبح حاكماً لحلب بعد مقتل ابن عمه بلك في ٥١٨هـ /١١٢٤م. أنظر: ابن العديم، د. ت: ٢٠١).
* ابو العساكر بن منقذ: هو سلطان ابن سديد الملك بن منقذ، تملّك والده حصن شيزر في عام ٤٧٤هـ. أنظر ابن العديم، د. ت: ٢٩٢).

عندما أسره بلك (ابن العديم، د. ت: ٢٨٥). توجه بالدوين بعد ذلك إلى شيزر حيث استقبله أبو العساكر حاكم شيزر، ومن هناك تابع مسيره إلى أنطاكيا، حيث فرح الفرنجة بفك أسره، ولوانهم اعترضوا على بعض شروط الاتفاقية باعتبار أن الثمن كان باهظا ماديا ومعنويا، وخاصة وضع ابنته كرهينة لدى تمرتاش، وأن بالدوين تعهد بتسليم قلاع ليست تابعة له بل تقع ضمن أراضي أنطاكيا (ابن منقذ، ١٩٣٠م:١٥٥ ؛ Fulcher,n.d:273).

لم يفِ بالدوين ببنود الاتفاقية وغدر بتمرتاش - كما يذكر ابن العديم- وأرسل إليه يقول: " البطريرك الذي لا يمكن مخالفته سألني عما بذلت، وما الذي استقر عليه الأمر، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها، أبى وأمرني بالدفاع عنها. ثم أضاف مخاطبا تمرتاش "إن الخطيئة تُلزمني ولا أقدر على مخالفته ". وترددت الرسل بين تمرتاش وبالدوين ولم يستقر الأمر على حل للمشكلة (ابن العديم، د. ت: ٢٨٥). حاول بالدوين أن يستخدم القوة أحيانا، والدبلوماسية أحيانا أخرى للتخلص من شروط الاتفاقية وتحرير ابنته. وقد حاول حصار حلب للضغط على سكانها من أجل تسليم الرهائن، وتحالف مع دبيس، عدو تمرتاش لتحقيق هدفه. فاضطر أخيرا إلى دفع فدية لتحرير ابنته التي أصبحت فيما بعد رئيسة دير (Fulcher,n.d:272). أخيرًا وصل بالدوين إلى القدس مع الرهائن المحررين عام ٥١٩هـ/ ١١٢٥م، بعد قضائه ١٦ شهرا في الأسر (Fulcher,n.d:21).

وقع أكثر من قائد صليبي في أسر المسلمين في عهد نور الدين زنكي. ففي عام ٥٤٥هـ/١١٥٠م تمكنت مجموعة من التركمان من أسر جوسلين الثاني* أمير الرها وصاحب كفرطاب وتل باشر، وأرسلوه إلى نور الدين الذي وضعه في سجن في حلب. ويصف وليام الصوري حالة جوسلين بعد الأسر بأنه " وقع في أسوأ مصير وهو السجن، حيث قبع هناك مقيدا بالسلاسل الحديدية الثقيلة، وتعرض لشتى أنواع المعاناة الجسدية والعقلية " Tyre,1943:89.

وكان نور الدين قد قتل صاحب أنطاكيا ريموند قبل ذلك، عام ٥٤٤هـ/١١٥٠م، وأسرفي غزوة أخرى زوج والدة أمير أنطاكيا بوهمند (ابن الأثير، ٢٠٠٣م: ٣٦٣). وانتقد وليام الاتفاقية التي أبرمها الملك بالدوين الثالث مع المسلمين، بعد قيام بعض المستشارين الماكرين بإقناعه بذلك، فقام الملك بالهجوم على المسلمين طمعا في الغنائم، وبسبب حاجته للمال، فباغتت القوات الصليبية المسلمين، فقتلت وأسرت كثيرا منهم، إلا أن بعضهم استطاع الفرار والاختباء في الغابات (Tyre,1943:542).

ولا يتوانى وليام عن التعبير عن استيائه من هذه الغارة والهجوم على أناس أبرياء كانوا يتجولون قرب بانياس لشعورهم بالأمان بسبب الهدنة مع الصليبيين، واعتبر الصليبيون هذا انتصارا قل مثيله ، حيث استولوا على كمية ضخمة من الغنائم وقتلوا وأسروا أعدادًا كبيرة من المسلمين. إلا أن وليام يرى أن هذا النصر" لم يجلب المجد والرفعة للفرنجة، لأنهم انتهكوا حرمة الهدنة والسلم مع المسلمين، وقاموا بالهجوم على قوم عزل يتجولون في البلاد وهم يشعرون بالأمان والثقة في ظل حماية الملك. ويقول وليم أن الرب المنتقم) لم يمنحنا الفرصة للتمتع بخطيئتنا، فأنزل عقوبته ليعلمنا أنه علينا احترام الاتفاقيات والمواثيق حتى مع الكفار) " (حماد، ٢٠٠١م: ٢٥٣ ؛ Tyre,١٩٤٣:٢٥٥).

قرر نور الدين الانتقام من الفرنجة لنقضهم الهدنة فحاصر بانياس في ٥٥١هـ/ ١١٥٧م، ما جعل بالدوين الثالث يقوم بإرسال حملة عسكرية لمساعدة المدينة، فأعد لهم نور الدين كمينا بالقرب من طبرية وقتل عدًدا كبيراً منهم وأسر البقية، وتمكن بالدوين من الهرب (أبو شامة، ٢٠٠٢م: ٢٧٣). ويروي وليام الصوري، وبامتعاض، عن استسلام النبلاء والفرسان المعروفين بالحكمة الشجاعة والجنود الآخرين ووقوعهم في أسر المسلمين دون مقاومة كأدنى مستويات العبيد :"وآثروا الرزوح لحياة العبودية والمهانة والذل التي ستبقى ملازمة لهم للأبد من أجل الإبقاء على حياتهم البائسة " (Tyre,1943:260). وكان من بين الأسرى قادة مهمون منهم، هيو إبلين Hugh de Ibelin وأوديس دي سينت أمانيل -Eudes de Saint Amanell قائد قوات الملك برتراند دي بلانكفرتBertrand de Blanquefort مقدم الداوية ويعدونه وليام الصوري رجل دين يخاف الله (Tyre,1943:261).

مع تصاعد حملات نور الدين ضد الصليبيين، قام بمهاجمة (حارم)* التي تعد من أهم وأكثر المواقع تحصينا حول أنطاكيا، واستطاع أن يلحق هزيمة ساحقة ضد الفرنجة، وأجبرهم على الفرار (طلاس، ١٩٩٣م: ٣٠٧). ويذكر وليام الصوري أن سبب مسير نور الدين لحارم يعود لرغبته في الانتقام من الفرنجة بعد هزيمته في طرابلس عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م، وينتقد استسلام القادة والفرسان وقبولهم حياة العبودية في الأسر عوضا عن القتال حتى الموت. وكان أهم من وقع في الأسر بوهمند الثالث أمير أنطاكيا، وريموند حاكم طرابلس، وكولمان حاكم قليقلية، وجوسلين الثالث ابن جوسلين الثاني، وابن لاون ملك الأرمن. وتم نقل الأسرى، "وبصورة مهينة ومخزية مقيدين بالسلاسل إلى حلب، حيث أصبحوا رياضة للكفارA sport of the infidels " Tyre,1943:308).

* جوسلين الثاني: هو ابن جوسلين دي كورتني، أمير الرها، تولى الحكم بعد وفاة والده Tyre,1943:542).

* حارم: كورة جليلة تجاه أنطاكية، ثم أصبحت من أعمال حلب، وكانت حصن حصين وحرماً لمن فيها. انظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٢٠٥؛ وتعد حارم منطقة إدارية تقع في حوض نهر العاصي الأدنى، وتمتد بين جبل سمعان في الشمال الشرقي، وسهل الروج وإدلب في الجنوب، ووادي العاصي وسهل العمق في الغربر والشمال، ويجاورها لواء الأسكندرونة من الشمال والغرب (طلاس، ١٩٩٣م: ٨).

نتيجة لأسر بوهمند وسقوط (حارم) بيد نور الدين، لم يجد عموري ملك بيت المقدس سوى الرجوع من حملته على مصر، وسار إلى أنطاكيا من أجل العمل على إطلاق سراح بوهمند ، حيث ترددت الرسل بين عموري ونور الدين في شأن الأسرى. وقد تمكن عموري من جمع المال لفدية بوهمند وغيره من الأمراء والنبلاء، وبعد الاتفاق مع نور الدين الذي كان في مصلحته، لأنه " أخف عليه أن يرى بوهمند على عرش أنطاكيا من أن يجاوره عموري عند قيامه بالوصاية في حال بقاء أميرها الشرعي في أسره، ولأن بوهمند أمير صغير لا يوجد منه خطر، وأخذ منه فدية كبيرة، وأطلق عددًا من الأسرى المسلمين وذهب إلى القسطنطينية ليساعده الإمبراطور في دفع الفدية لنور الدين " (أبو شامة، ٢٠٠٢م: ٣٤٢). من جهته، يرى وليام الصوري الذي كان معاصرا لتلك الأحداث، أن مدة سجن بوهمند كانت حوالي السنة، حيث أُطلق سراحه في صيف ٥٦٠هـ/١١٦٥م. ويضيف أن الفضل في ذلك يعود إلى النجاح العسكري لثوروس الثاني. حاكم أرمينيا، وليس لقوة عموري في إقناع نور الدين (Tyre,1943:310). أسرع بوهمند بعد إطلاق سراحه وبحماس لجمع الأموال لافتداء من تبقى من أسرى الفرنجة لدى نور الدين. ويبدي وليام الصوري استغرابه من تسامح وإنسانية نورالدين الذي يصفه بالحكيم في تعامله مع الأسرى وسرعة استجابته لمساعي الفرنجة لإطلاق سراح أسراهم، وهو الذي (نورالدين) يفتخر بأنه يوجد في أسره عدد كبير من الفرنجة وبالذات من ذوي المكانة الرفيعة. وكان دوما يسعى لتحرير الأسرى الفرنجة بأسرع وقت.

ولكن يتساءل وليام عن سبب تسرع نورالدين بإطلاق سراح بوهمند الثالث، ويرى أن هناك تفسيرين أولهما أنه تخوف من تدخل الإمبراطور البيزنطي، زوج أخته، وبالتالي يطالب نورالدين بإطلاق سراح بوهمند دون دفع فدية. والسبب الثاني الذي يتوافق نوعا ما مع تفسير أبي شامة، أن نور الدين خشي أن يأتي سكان أنطاكيا بحاكم قوي بدلاً من بوهمند الثالث الذي كانوا يرونه ضعيفا وصغيرا في السن. وهكذا يضطر نورالدين لمواجهة حاكم قوي قد يشكل خطرا عليه.

" وبما أن نورالدين مشهور بذكائه وحكمته، رأى أنه من الأفضل له إطلاق سراح بوهمند لأن هذا يخدم مصالحه، وأنه لا يتوقع خطرًا من ناحيته " (Tyre,1943:311). وبالرغم من إطلاق سراح بوهمند وعدد كبير من معاونيه، إلا أن نورالدين كان لا يزال يحتفظ بعدد من قادة وأمراء الفرنجة المهمين، منهم رينو شاتليون، وريموند الثالث أمير طرابلس، وجوسلين الثاني الذي بقي في الأسر لمدة تسع سنوات (Tyre,1943:311).

أما بالنسبة للقادة المسلمين الذين وقعوا أسرى بيد الفرنجة فكانوا إما قادة غير رئيسيين، أو أبناء أو أقرباء القادة المسلمين. ومن الأمثلة على ذلك عائلة شمس الدولة في أنطاكيا. وهناك مثال آخر يورده وليام الصوري في معرض حديثه عن إحدى حملات عموري على مصر، والتي انتقدها وهاجمها لأنها كانت خرقا للهدنة المعقودة مع المصريين عام ٥٦٢هـ/١١٦٧م. بعد المجزرة التي ارتكبتها قوات عموري في بلبيس*عام ٥٦١هـ/١١٦٨م، أسر عموري ابن شيركوه وابن أخيه، اللذين كانا مسؤولين عن حماية المدينة وقيادة الجيش المصري الموجود هناك. فعرض شيركوه من جهته فدية لهما عبارة عن مليونين من القطع الذهبية، وطلب أيضا انسحاب الفرنجة من بلاده. ويسخر وليام من هذا العرض حيث يقول أن هذا العرض يتجاوز إمكانيات شيركوه وأنه لو استخدم كل موارد مصر فلن يتمكن من جمع هذا المبلغ، ولكن وحسب رأيه أن هذه كانت مناورة من شيركوه لتأخير تقدم قوات عموري في مصر. هذه المماطلة لم تنجح، وأخيرا أدرك شاور أنه غير قادر على مواجهة الفرنجة، فعرض على الفرنجة ١٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية مقابل إطلاق سراح ابنه وابن أخيه، وانسحاب عموري. ولضمان الالتزام بالاتفاقية قدم شاور اثنين من أبناء إخوته كرهائن وكانوا صغار السن (Tyre,1943:354).

كان الأمر مختلفاً بالنسبة للفرنجة فقوانينهم Assizes* تنص بوضوح أنه يجب على التابع الإقطاعي أن يساهم في جمع الفدية لسيده، بل تذهب إلى أبعد من ذلك، بحيث أنه يجب على التابع أن يعرض نفسه للسجن كبديل لسيده حتى يتم جمع الفدية (Beaugnt,1841:397).

في حوالي عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م، أطلق سراح ريموند كونت طرابلس بعد أن قضى في السجن ثماني سنوات، عانى فيها من ويلات السجن والسلاسل. وأطلق سراحه بعد أن تم دفع فدية عبارة عن ثمانين قطعة ذهبية، واستعاد أراضيه التي كانت تحت وصاية الملك. كذلك، دفع عموري هدايا لريموند كي يفتدي من بقي من أسراهم، وشجع الأمراء ورجال الدين للمساهمة في هذه المهمة (Beaugnt,1841:399).

يعتبر صلاح الدين من أعظم القادة المسلمين الذين حققوا انتصارات ساحقة ضد الفرنجة، وقد سطر صلاح الدين أسطورة في التسامح والعفو وأظهر قيم الفروسية المستمدة من قيم الإسلام، والتي جعلت منه نموذجًا للفروسية في الأدب الأوروبي تمثل أعظم القصص في التسامح والفروسية *.

قبل معركة حطين، حصل صلاح الدين على فدية كبيرة من الفرنجة مقابل إطلاق سراح ريموند صاحب طرابلس وطبرية، وكان أسيرا عند نورالدين لمدة اثني عشر عاما، حيث أسره في موقعة(حارم) ٥٦٠هـ/١١٦٥م، وبالمقابل، أظهر ريموند

* بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام (الحموي، ١٩٨٦م: ٤٧٩).

* قوانين الفرنجة Assizes : هي القوانين الخاصة بمملكة بيت المقدس وتُصدر بأمر من الملك ، وتمّ وضعها بعد احتلال بيت المقدس ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م (Smith,n.d:١٧٦)).

* Concerning the image of Saladin in European Literature, see, Lane-Pool, History of the Latin Kingdom of Jerusalem.

الشعور بالامتنان واعترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق (ابن جبير، ١٩٨٦م: ٢٥٤).

وبعد معركة حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م) وقع قادة الفرنجة جميعهم أسرى بيد صلاح الدين، ويصف العماد الأصفهاني المشهد بالتفصيل حيث يقول: " وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى، فقتل أرناط لأفعاله) وأبقى على حياة الملك جي لوزينان *Guy Lusinigan (٥٨٢-٥٩٠هـ/١١٨٦-١١٩٤م)، وأمنه وطمنه، ومكنه بقربه وسكنه. ومن الأسرى أيضا همفري وهيو سيد جبيل وأرناط " (الأصفهاني، ٢٠٠٣م: ٨٠)، ويضيف العماد أن المكان امتلأ بالأسرى وقيد الأسرى بالحبال ، وقلوبهم واجفة (الأصفهاني، ٢٠٠٣م: ٨١).

المعاملة المتسامحة لصلاح الدين تجاه القادة الصليبيين الأسرى لديه لم تطبق على الجميع لأسباب تتعلق بمدى العداء والقتل ونقض العهود الذي مارسه هؤلاء الذين حكم عليهم بالقتل، ومنهم بحسب رواية العماد مائتان من الداوية والأسبتارية، حيث اختار قتلهم على استرقاقهم.

وأصر صلاح الدين على قتل أرناط بسبب الجرائم التي ارتكبها ضد المسلمين ومنها التعرض لقافلة متجهة لمكة وفيها أخته، عدا محاولاته العسكرية للوصول إلى المدينة لتدنيس قبر الرسول صلى الله عليه وسلم (ابن شداد، ٢٠٠٣م: ١٥٦). وسير صلاح الدين ملك بيت المقدس وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم إلى دمشق ليودعوا في السجن، حتى يقرر صلاح الدين كيفية الاستفادة منهم، إما السعي لاستخدامهم كوسيلة للضغط على من تبقى من الأماكن التابعة للصليبيين، ولاستغلال ضعف الفرنجة بشكل عام لسقوط معظم قادتهم في الأسر، أو لتحقيق فائدة اقتصادية بالحصول على فدية من الفرنجة. ولكن صلاح الدين ضرب أروع الأمثلة في التسامح الذي صدم وفاجأ الفرنجة وحتى المسلمين. فأطلق معظم أسرى الفرنجة دون مقابل. وهناك الكثير من القصص في المصادر التي تتحدث عن مدى كرم وإنسانية صلاح الدين، الذي استعلى على مبدأ الانتقام والمعاملة بالمثل، وهو أقل ما توقعه الصليبيون، وهذا ما ساهم في تحويل صلاح الدين إلى شخصية أسطورية في الأدب الغربي في العصور اللاحقة.

افتداء الأسرى من النساء:

تروي المصادر العربية واللاتينية للحروب الصليبية الكثير من الحالات التي تعرضت فيها النساء للأسر من الطرفين. ويبدو أن هذه المشكلة كانت منتشرة بشكل واسع، حيث كانت النساء تأخذ مع الأطفال والرجال كغنيمة من غنائم الحرب. ويعتبر أسر النساء في بعض الأحيان، أهم من الرجال لأن العائد الاقتصادي كان أكبر، حيث يمكن بيعهن أو استعبادهن أو استخدامهن للأعمال اليدوية. ونادرا ما كانت النساء تقتل وخاصة إذا كنّ جميلات. ويروي فوشيه في أحداث ٤٩٤هـ/١١٠١م كيف أن الصليبين بعد احتلالهم لقيسارية قتلوا معظم الرجال، وحافظوا على الكثير من النساء لأنه يمكن استخدامهن في تحريك الطواحين اليدوية ويضيف أن " رجالهم الفرنجة) بعد أن أسروا النساء قاموا ببيع وشراء الجميلة والقبيحة فيما بينهم" (Fulcher,n.d:154).

يعد وقوع النساء في الأسر من أسوأ الكوارث التي تنتج عن الحروب، إذ أنهن الطرف الأضعف في المعادلة. ويعرض لنا وليام الصوري عدداً من الأمثلة على ذلك؛ ففي عام ٥١٨هـ/١١٢٤م قام بالدوين الثاني بهجوم على شرقي الأردن Trans-Jordan وفاجأ السكان على غفلة فقتل منهم عدًدا كبيرًا، وأسر عددا أكبر من الرجال والنساء، مما أدخل السرور إلى قلوب الفرنجة، ويضيف : أن النساء يعتبرن أفضل غنيمة لأجل البيع، كما تباع الخيل أو البضائع الأخرى (Tyre,1943:31). وفي العام التالي انعكس الوضع، حيث تمكن البرسقي حاكم حلب والموصل من إلحاق هزيمة بالفرنجة، وأسر عددًا من النساء والأطفال Tyre,1943:32).

وفي حالات كثيرة عندما تقع النساء أسرى في يد العدو، فإن التعامل معهن يعتمد على الفائدة الاقتصادية التي يمكن الحصول عليها، وهذا يرتبط أولا بالمكانة الاجتماعية للمرأة وبالذات إذا كانت من العائلات النبيلة أو حتى من الأميرات. كانت النساء عادة يبعن كعبيد في الأسواق، أو في حالة وجود شخص مهم أو غني صاحب نفوذ مستعد لافتدائهن، فإنه كان يتم الحفاظ على حياتهن، وكانت الفدية التي تدفع عن النساء أقل من تلك التي تدفع لافتداء الأسرى من الرجال كونهن من غير المقاتلات. ومن الأمثلة على ذلك أن صلاح الدين عندما عرض الأمان على سكان القدس عام (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، طالب بأن المبلغ لافتداء المرأة يكون نصف فدية الرجل، والطفل العشر (الأصفهاني، ٢٠٠٣م: ١٢٧).

كان وقوع المرأة في الأسر، يترتب عليه مباشرة الإساءة في المعاملة، والاغتصاب، على اعتبار أن هذه الحالة طبيعية في الحروب ووقوع المدنيين في أسر العدو كغنيمة وخاصة النساء كسبايا) كان يحمل دوما صبغة جنسية Friedman,2002:8. ولهذا كان يفترض دوما أن المرأة التي تقع في الأسر لا يمكن أن تحافظ على شرفها، ولا تلام على ذلك (Khadduri,1955:174 ؛ Friedman,2002:8).

ولكن تبقى النظرة للمرأة التي تحافظ على شرفها حتى لو قتلت في سبيل ذلك عمل بطولي هذا ما يؤكده أسامة بن منقذ في كتابة الاعتبار، حيث يرى أن أسوأ مصير يمكن أن تقع فيه المرأة النبيلة هو الوقوع في الأسر وهذا أسوأ من الموت. ويروي لنا أسامة، وبفخر، كيف أن أمه الشجاعة وضعت أخته على سور الشرفة عند اقتراب العدو منهم (الباطنية) وعندما سألها

* غاي جاي لوزينان: ملك بيت المقدس الذي سقط أسيرا بيد صلاح الدين بعد معركة حطين.

أسامة عن ذلك أجابت:" يا بني أجلستها على الروشن وجلست برا منها، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها فرميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة". "فشكرتها على ذلك وشكرتها أختي وجزتها خيرا" (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ١٦٠).

ويذكر أسامة بن منقذ حادثة أخرى تمثل نظرة المجتمع الإسلامي في تلك الفترة تجاه وقوع المرأة في الأسر، وهي تفضيل موتها على ذلك المصير المريع. هذه القصة تتحدث عن رفول، ابنة رجل كردي يدعى أبا الجيش سباها الفرنج وقد شعر بمرارة شديدة حيث كان يقول لكل من يراه " لقد سبيت رفول ". وعندما عثر عليها غريقة في النهر، حيث ألقت بنفسها من على فرس الإفرنجي الذي أخذها مفضلة الموت غرقا على الوقوع في الأسر، هنا "سكنت لوعة أبيها أبي الجيش" (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ١٩٢).

وكانت المرأة في تلك المجتمعات تابعة للرجل ولا تملك حرية التصرف. وكان المجتمع يعتبرها عبئا اقتصاديا ومعنويا، وخاصة في فترة الحروب، وكانت تعامل من حيث القيمة كأسيرة نصف قيمة الرجل. وهناك الكثير من الروايات التي تتحدث عن إعطاء العدو رهائن من الفتيات حتى لو كن صغيرات في السن. فهناك بالدوين الثاني الذي أرسل ابنته ذات السنوات الخمس كرهينة لدي البرسقي مقابل حريته ، وكضمان لدفعه ما تبقى من فديته، ثم أطلق سراحها بعد دفع الفدية كاملة (Tyre,1943:16).

وكذلك زوجة رينير بروس Renier Brus' wife ، التي أسرت من قبل المسلمين مع مجموعة من السكان والمرتزقة في بانياس عام ٥٣٢هـ/١١٣٨م، وقد أطلق سراحها بعد سنتين بعد جهود دبلوماسية مكثفة بين فولك Fulk of Anjou ملك بيت المقدس وحاكم دمشق، فعادت إلى زوجها النبيل بعد غياب سنتين وبكرمه وبالرغم من ذلك، أعادها إلى مكانتها السابقة كزوجة. ولكن، وكما يزعم وليام الصوري، فإن الزوج بدأ يلاحظ من تصرفاتها نها كانت غير مخلصة له أثناء الأسر، وأن أخلاقها تشوبها الشبهات، حيث "إنها لم تحافظ على قدسية فراش الزوجية، كما يجب على المرأة النبيلة أن تفعل. ولم تنكر فعلتها، فقام زوجها بتسريحها، حيث التحقت بدير في بيت المقدس وأصبحت راهبة، وبعد وفاتها قام بالزواج مجددا" (Tyre,1943:77).

إن معاملة الأسرى من الرجال كانت بطبيعة الحال تختلف عن معاملة النساء. ففي حين أن الرجال بعد الأسر يتعرضون لخطر الارتداد عن دينهم، والتعذيب والاستعباد أو القتل، فإن الأنثى الأسيرة كانت تعتبر غنيمة جنسية بالدرجة الأولى كدليل على السيطرة والانتصار العسكري على العدو. لهذا نجد أن المرأة مهددة بالذوبان في مجتمع العدو، ويذكر أسامة في كتابه العديد من القصص التي تتعلق بمحاولة إدماج المرأة الأسيرة في المجتمع، وفشل هذه المحاولات في كثير من الأحيان. ويثير أسامة تساؤلات حول مدى إخلاص الأسرى من الفرنجة الذين اعتنقوا الإسلام للهرب من العبودية أو القتل وبالذات المرأة إذا تزوجت من مسلم. ويروي قصة تتعلق بأسيرة فرنجية بعد أن أسلمت وتزوجت من عمه وأنجبت له ولدا. ولكن، وبعد عدة سنوات عندما سنحت لها الفرصة فضلت أن تلوذ بالفرار لقومها الفرنجة" وهكذا فهم قوم (الفرنجة) جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم. ثم تزوجت من إفرنجي إسكافي وابنها صاحب قلعة جعبر" (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ١٦٦).

وهناك قصة أخرى يرويها أسامه بن منقذ ليدلّل على استحالة اندماج الفرنج في المجتمع الإسلامي، حيث إنّ والده اشترى عددًا من الأسرى منهم امرأة ومعها ابنة شابة جميلة وابن اسمه راؤول) اعتنق الإسلام وكان يقيم الصلاة ويحفظ القرآن، فتزوج من امرأة مسلمة ورزق منها بولدين. ولكن، وبعد سنوات من عيشه بين المسلمين، قرر أن يعود إلى أفاميا، " وتنصر هو وأولاده بعد الإسلام والصلاة والدين " (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ١٦٨).

نستنتج من الروايات السابقة أن المسلمين كانوا يعرضون على أسراهم الصليبيين خيار اعتناق الإسلام، وبعدها يعاملون معاملة المسلم ، لهم نفس الحقوق دون تمييز. ولكن، يبدو من قصص أسامة بن منقذ، أن هناك شكوًكا لدى المسلمين حول مدى إخلاص هؤلاء وإمكانية الثقة بهم (الشيباني، ١٩٧٥م: ١٢٢). وفي المصادر اللاتينية هناك قصص مشابهة تدور حول مسلمين تحولوا للمسيحية ليتجنبوا العبودية والقتل، إلا أنهم نادرًا ما كانوا يعاملون دون تمييز، أو يصلون إلى رتب متقدمة، وكانوا دومًا موضع شك، ولا يمكن الثقة بهم. وينص القانون الكنسي على أن الأسير المسلم أو العبد إذا اعتنق المسيحية فيجب إطلاق سراحه ومنحه الحرية. ولكن، وكما أكد جاك أوف فتري Jacque de Vitry, ، فإن هذا القانون نادرا ما كان يطبق عند الفرنجة *.

معاملة الأسرى: (أماكن وجودهم، مصيرهم ،وطرق الهرب من الأسر)

لقد ورد معنا مرارا أمثلة تؤكد مدى القسوة التي ميزت الحروب الصليبية، وكان الوقوع في الأسر، أو القتل، سواء كان الفرد مقاتلا أو مدنيا، طفلا أو امرأة، أو شيخا هو أسوأ مصير يمكن أن يصاب به إنسان، وأن الموت هو أرحم من الأسر والعبودية. وعلى الرغم من تطوّر طرق التعامل مع الأسرى، ووجود قوانين تتعلق بضرورة معاملتهم معاملة إنسانية وخاصة عند

* موضوع التحول لديانة المنتصر كانت منتشرة في فترة الحروب الصليبية عند الطرفين، ولكن، نجد أن المصادر نادرا ما تتحدث عن مسلمين اعتنقوا المسيحية، طبعا هذا لا يعني أنه لم يكن هناك مسلمون ممن وقعوا في أسر الفرنجة ثم اعتنقوا المسيحية، والمصادر اللاتينية تورد العديد من القصص حول هذا الموضوع، وهذا يستحق دراسة منفصلة (Tudebode,١٩٧٤:٩٢ ؛ Gesta, ١٩٦٢: ٧١ ؛ Tyre,١٩٤٣:٤٨٨).

الجانب الإسلامي، فإن وحشية الفرنجة والمجازر التي ارتكبوها في بداية الحملات أدت إلى رد فعل سلبي عند المسلمين، فبدأ المسلمون باتباع مبدأ المعاملة بالمثل، وهذا أمر أقره فقهاء ذلك العصر، حيث اقتضت الضرورة معاملة العدو الأسير كما يعامل الأسرى المسلمين لدى العدو (الشيباني، ١٩٧٥م: ٦٩). في البداية كان الفرنجة يقتلون كافة الأسرى، والمصادر اللاتينية المعاصرة للحملة الأولى فيها الكثير من الأمثلة على هذه المجازر المروعة والتي تمّ عرضها سابقاً (Fulcher,n.d:54). ثم بدأ الفرنجة بتغيير سياستهم تجاه قتل الأسرى والتوجه نحو الإبقاء على حياة البعض على الأقل ، وبشكل تدريجي لاعتبارات اقتصادية في الدرجة الأولى، أو للاستفادة من مهاراتهم العملية ، وأحيانا قد نلمس الاهتمام بالناحية الإنسانية لوضع الأسرى، ولو أن ذلك كان محدودا واعتمد على شخصية القائد الفرنجي، ويظهر ذلك في موقف بالدوين الأول من مجزرة بيروت؛ فعندما سقطت بيروت (٥٠٣هـ/ أيار١١١٠) على يد الفرنجة بقيادة بالدوين الأول، هرب سكان المدينة إلى الشاطئ، ولكن الفرنجة لاحقوهم وقتلوا كل من وجوده في طريقهم، وارتكبوا مجزرة مروعة تقشعر لها الأبدان. وقد استاء بالدوين نفسه من أعمال القتل الهمجية " فأمر المنادي الجنود بالتوقف عن هذه المجزرة، ومنح من بقي على قيد الحياة من السكان الأمان من القتل " (Tyre,1943:6).

وتحوي المصادر العربية واللاتينية على عدد من الأمثلة على أساليب التعامل مع الأسرى. ويروي ريموند أوغلية Raymond Aguilers بافتخار كيف أن جنود الفرنجة في عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م وأثناء نشوب معركة محدودة مع فرسان مسلمين بالقرب من أنطاكيا، قتل الفرنجة ثلاثين من المسلمين، وقبضوا على عدد مماثل، ولاحقوا من هرب منهم حيث أجبروهم على الغرق. ويصف ريموند هذا "النصر السعيد اكتمل عندما أجبر أسرى العدو على حمل رؤوس قتلاهم إلى أنطاكيا لاستعراضهم في شوارع المدينة " (Aguilers,1968:74). وفي موقع آخر يصف ريموند طريقة تعذيب الأسرى المسلمين، حيث تم تعذيب البعض حتى الموت، وآخرون أبقاهم الفرنجة على قيد الحياة على أمل أن يدلوهم على أماكن الغنائم. ولكن الفرنجة فوجئوا عندما رأوا أن الأسرى قادوهم نحو آبار مياه ثم قفز الواحد تلو الآخر مفضلين الموت على البقاء في أسر الفرنج. ويرى ريموند أن هؤلاء الأسرى فضلوا الموت على أن يكشفوا للفرنجة أماكن وجود أملاكهم وثرواتهم (Aguilers,1968:78).

ومن أساليب التعذيب ترك الأسرى عراة مكشوفين في العراء وبدون طعام حتى يهلكوا. هذا ما فعله جوسلين عندما أغار على تل باشر ٥١٣هـ/١١٢٠م)، حيث أسر العجائز والمشايخ والضعفاء، ونزع عنهم ثيابهم وتركهم في البرد عراة، فهلكوا جميعهم (ابن العديم، د. ت: ٢٢٥).

ويروي بيتر تيديبود Peter Tudebude أنه وأثناء حصار الفرنجة لبيت المقدس في ٤٩٢هـ/٩ تموز ١٠٩٩م، قبض الفرنجة على جاسوس مسلم بعد أن كشفه اليونانيون والسريان المشاركين مع جيش الفرنجة. قام الفرنجة باستجواب هذا الجاسوس سيء الحظ، ثم قاموا بتقييد يديه وقدميه، ووضعوه في قاع إحدى الآلات العسكرية، ويبدو أنها نوع من المدافع، ثم قاموا بإطلاقها وفيها السجين تجاه أسوار القدس. ولكنهم وجدوا أنه من المستحيل أن يصل إلى هناك لأن : " الآلة قذفته بقوة كبيرة بحيث أن عظامه قد تفتت قبل أن يصل للأسوار" (Tudebode,1974:117).

إن الوحشية التي عامل بها الفرنجة السجناء المسلمين أثارت مشاعر الذعر والخوف والدهشة بين المسلمين. ويروي لنا أسامة بن منقذ حادثة تدلل على مدى وحشية الفرنجة في تعاملهم مع الأسرى، فعندما سقط أحد الفرسان المسلمين أسيرا في يد الفرنجة " أخذوه وعذبوه كل أنواع العذاب، وأرادوا قلع عينه اليسرى، فقال لهم (تنكري Tancred) لعنه الله، أقلعوا عينه اليمنى حتى إذا حمل الترس استترت عينه اليسرى فلا يبقى يبصر شيئا. " فقلعوا عينه اليمنى كما أمرهم وطلبوا منه ألف دينار وحصانا أدهم كان لوالدي، فاشتراه بالحصان " (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ٨٩).

وفي مشهد مؤثر، يصف ابن جبير في رحلته، صورة المسلمين الأسارى في عكا، رجالا ونساءً مقيدين بالسلاسل، ويمارسون الأعمال الشاقة، والنساء يمشين بصعوبة بسبب الأغلال في أقدامهن (ابن جبير، ١٩٨٦م: ٣٢٢).

بالنسبة للجانب الإسلامي، فكما ذكر سابقا، فإنه يجب على المسلمين الأخذ بدبلوماسية حسن معاملة الأسرى وعدم تعذيبهم. بالإضافة إلى ذلك، عليهم الإحسان إليهم وإطعامهم وكسوتهم ، وإطلاق سراحهم بدون مقابل. ولكن السؤال هنا، إلى أي مدى طبق المسلمون هذه التعاليم في تعاملهم مع أسرى الفرنجة؟ إن الإجابة على هذا السؤال تختلف من قائد إلى آخر، ومن فترة زمنية إلى أخرى. ولكن، وبعد استعراض المصادر المتعلقة بهذه الفترة، نجد أن المسلمين بدأوا يتخلون عن الدبلوماسية وتأثروا تدريجيا بطريقة معاملة الأسرى عند الفرنجة، وبعض العلماء أباح الاستعباد وحتى القتل من منطلق مبدأ المعاملة بالمثل.

وفي رواية لابن العديم عن مواجهة بين المسلمين والفرنج قرب حلب عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م، تؤكد تعامل المسلمين مع أسرى الفرنج بموجب مبدأ التعامل بالمثل، حيث إن الفرنجة كلما وقع بأيديهم مسلم، قطعوا يديه ثم دفعوه إلى المسلمين، " فقام المسلمون بفعل نفس الشيء بمن يأسرونه من الفرنج. وربما شنق المسلمون بعضهم " (ابن العديم، د. ت: ٢٢٥).

تعرض المصادر اللاتينية المعاصرة بالتفصيل طريقة تعامل المسلمين مع الأسرى الفرنجة؛ فمثلاً يصف وليام الصوري كيف عامل المسلمون الفرنج بعد هزيمتهم في شرق الأردن (Trans-Jordan)، واستيلائهم على القلعة التي كانت تابعة للفرنج فقد " عاملوا الأسرى حسب أهوائهم، فبعضهم قتل وبعضهم اقتيد بالأغلال لعبودية أبدية " Tyre,١٩٤٣:٤٤٦)). ويزعم وليام في موقع آخر أن المسلمين كانوا يتبعون أساليب

متنوعة في تعذيب الأسرى، منها نشر عظام الأسير، أو دفنهم وهم أحياء، وأحيانا استخدامهم كأهداف حية لسهام الفرسان ليتمرنوا عليهم (Tyre,1943:544).

ويروي فوشيه عن حصار المسلمين لأرسوف٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وقيامهم بصلب أسرى الفرنج أمام الجميع، ورموهم بالسهام، فقتلوا البعض وأبقوا على حياة آخرين لبيعهم كعبيد (Fulcher,n.d:153). ومن الجدير بالذكر أنه لا يوجد ما يؤكد ما رواه فوشيه، لأن أغلب الروايات التي تتعلق بتعذيب المسلمين للفرنجة تبدأ عادة في مرحلة متأخرة من بداية الحملة الأولى.

كانت شخصية القائد تلعب دوًرا هامًا في تقرير مصير الأسرى. ففي عام ٥١٢هـ/١١١٩م انتصر المسلمون على الفرنجة بقيادة إيلغازي الذي جلب أسرى الفرنجة معه إلى حلب، وبينهم أصحاب القلاع والمقدمين وابن بوهمند ومبعوث الإمبراطور البيزنطي، حيث استطاع هؤلاء افتداء أنفسهم بالمال وأطلق سراحهم. إلا أنه كانت هناك استثناءات، فقد بقي ما يزيد على نيف وثلاثين أسيرا "بذلوا من المال ما رغب عنه، فقتلهم بأسرهم" (ابن العديم، د. ت: ١٩٣). وفي حادثة مشابهة، أسر المسلمون أعدادا كبيرة من الفرنجة من كفرطاب، فاقتسم الأمراء الأسرى وأبقوهم معهم ليشتروا أنفسهم ، إلا أن أمير الجيوش قتل كل من وقع في سهمه من الأسرى قبل أن يتوجه إلى حلب (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ٩٩). ولكن يبقى هذا التصرف غريبا وغير مألوف، ولهذا نجد أن المصادر تورده لغرابته وتبدي دهشتها من القيام بمثل هذا الأمر.

لقد عامل المسلمون أسرى الفرنجة كما عامل الفرنجة أسرى المسلمين. لكن مع الفارق بين الطرفين أن الفرنجة أثناء غزوهم للمدن الإسلامية قتلوا واستخدموا الأساليب الوحشية ضد العسكريين والمدنيين ،في حين كان قتال المسلمين موجها ضد العسكريين فقط.

بالرغم من ذلك تبقى حالات تعذيب الأسرى متفاوتة، وقد تتعمد المصادر الإسلامية تجنب الحديث عن هذا الموضوع، لكننا نلاحظ أن الروايات التي تتحدث عن افتداء الأسرى أو تحريرهم بعد دخولهم في الإسلام، أو العفو عنهم كما فعل نور الدين وصلاح الدين الأيوبي ترد تكرارا. وهناك العديد من الأمثلة في المصادر الإسلامية التي تدل على حسن تعامل القادة المسلمين مع الأسرى واحترام الاتفاقيات والهُدَن. ونجد هذه الأمثلة والنماذج في المصادر اللاتينية مما يدل على إعجاب المؤرخين اللاتين بإنسانية المسلمين. ويشير وليام الصوري إلى أن نورالدين زنكي بعد أن استولى على بانياس عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م، سمح لجميع سكانها بالمغادرة مع ممتلكاتهم دون أن يتعرض لهم أي أحد بأذى (Tyre,1943:310).

ولقد ضرب صلاح الدين مثلا في تعامله مع الصليبين فبعد هزيمة الفرنجة في حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م قام بإطلاق سراح الأسرى، وكان يطعمهم ويكسوهم ويلبي مطالبهم (ابن شداد، ٢٠٠٣م: ١٦٢). ويروي الأصفهاني أن عدًدا من الأسرى الفرنجة وصل من بيروت، فقابلهم صلاح الدين وتحدث مع أحدهم الذي تبين أنه حاج وصل حديثا للشرق. وعندما استأذنه " خدم أولاده الصغار أن يجربوا سيوفهم بجرح الأسارى الكفار لم يأذن لهم " (الأصفهاني، ٢٠٠٣م: ٤٧١).

في مقابل هذه الصورة المشرقة بالتسامح والفروسية، نجد ريتشارد قلب الأسد قائد الجيش الإنجليزي، عندما احتل عكا وتفاوض مع صلاح الدين من أجل إطلاق سراح المسلمين الموجودين داخل المدينة، ووافق على ذلك، لكنه نقض العهد، وقام بعرض الأسرى المسلمين على أسوار عكا حيث قام بقتلهم جميعا على مرأى من صلاح الدين وجنوده (الأصفهاني، ٢٠٠٣م: ١٢٧ ؛ ابن شداد، ٢٠٠٣م: ٣٠٣ ؛ ابن الوردي، د.ت: ١٥٦).

أما فيما يتعلق بأماكن وجود الأسرى خلال أسرهم وطرق استخدامهم ومعاملتهم اليومية، فالمعلومات في المصادر قليلة ومشتتة ولا تعطي صورة واضحة عن هذه المواضيع؛ فبعد وقوع الأسرى بيد العدو، وبعد انتهاء المعركة يتم تقييد أيدي وأرجل الأسير بالسلاسل، وعادة يُساق كل اثنين مًعا. ونقل لنا ابن جبير مشهدا مؤثرا لأسرى المسلمين " يرسفون في القيود، ويُصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، في أسواقهم مقيدات بخلاخيل الحديد، فتنفطر الأفئدة، ولا يغني الإشفاق عليهم شيئا " (ابن جبير، ١٩٨٦م: ٢٥٣)، كذلك يروي أسامة بن منقذ أن أسارى الفرنج من كفر طاب بعد هزيمتهم على يد المسلمين، أنه كان يتم اقتيادهم بربطهم كل اثنين في قيد (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ٩٨). ويصف لنا الأصفهاني مشهدا للأسرى بعد فتح الناصرة حيث يقول: " جاءوا بالأسرى بين يديه –صلاح الدين- مقرنين في الأصفاد، مقودين في الأقياد، مسوقين إلى السوق والحديد منهم في الأعناق والسوق " (الأصفهاني، ٢٠٠٣م: ٩٣).

وعندما أنهى صلاح الدين الخلافة الفاطمية عام ٥٦٦هـ/١١٧١م، وجد أن الأسرى الفرنجة موجودون في مسجد الحاكم، حيث أوجدوا لهم كنيسة بداخله، فقام صلاح الدين بترحيلهم وتحويل المكان إلى إسطبل Lev,١٦:٢٠٠١)).

وفي الفترة الأيوبية حدث تطور ملحوظ في طريقة الاحتفاظ بالأسرى، فكان الأسرى من النبلاء الفرنجة يوضعون مع زوجاتهم وأطفالهم في سجن يعرف بـ " خازن البنود " (Lev,2001:16 ؛ المقريزي، د. ت: ٣).

وكان الأسرى يستخدمون كأيدي عاملة، فهناك إشارة لابن الطوير تتعلق بأسرى فرنجة، يُقدر عددهم بحوالي ألف، سيقوا إلى القاهرة، حيث استُخدم الرجال للعمل في القصر وآخرون أرسلوا للعمل في مخازن وطواحين القصر. في حين أن النساء والأطفال تم توزيعهم بين الأمراء وذهب معظمهم للوزير. بالنسبة للأولاد صغار السن فقد كان يتم تدريبهم ليصبحوا مماليك، عبيدا مقاتلين لمن يملكهم من الأمراء. أما الأسرى من كبار السن وآخرين ممن لا يستفاد منهم فكانوا يقتلون

(Lev,2001:17 ؛ ابن الطوير، ١٩٩٢م: ٩٨).
هذه التقسيمات تتكرر أيضا مع الأسرى، النساء فإذا كن جميلات يرسلن كهدايا للأصدقاء، ومن كن يفتقرن للجمال يتم الاستفادة منهن في الأعمال اليدوية. والرجال الأصحاء كانوا يستخدمون كعبيد في أعمال البناء والأعمال الشاقة. ويروي ابن جبير أثناء زيارته لمصر ١١٨٢-١١٨٣م أن صلاح الدين استخدم الأسرى الفرنج في بناء قلعة القاهرة. ويذكر أيضا أن معظم مشاريع البناء التي أمر بها صلاح الدين كان يقوم بها الأسرى بحيث لم يعد هناك حاجة لاستخدام عمال أحرار يعملون مقابل أجر (ابن جبير، ١٩٨٦م: ٢٥). إن استخدام الأسرى في أعمال البناء كان أمرا مألوفا عند الجانبين، الإسلامي والصليبي، فكلا الطرفين كانا بحاجة مستمرة لبناء أو ترميم القلاع والحصون، وهذا يفسر تطور فن العمارة والبناء في هذه الفترة، وخاصة بناء القلاع والتحصينات. ويرى كلود كاهن أن استخدام الأسرى من قبل الطرف الآخر أدى إلى تأثر الجانبين من ناحية فن وأسلوب العمارة، وانتشار وتبادل هذه الأساليب الفنية وأساليب بناء آلات الحصار وتصنيع الأسلحة بين الطرفين (كاهن، ١٩٩٥مم: ٢٢٥).
وتتباين احتمالات فوز الأسير بحريته وتختلف من شخص لآخر حسب مكانته واهميته الاقتصادية والسياسية، وإذا لم يفلح الأسير في تحرير نفسه بإحدى تلك الطرق، فيبقى المجال الوحيد أمامه هو الهروب بالرغم من المخاطر الجسيمة التي قد يتعرض لها. ولقد نظر كل من المسلمين والفرنجة للأسير الذي يحرر نفسه بالهرب من السجن نظرة إيجابية واعتبروا ذلك عملا بطوليا. فبالنسبة للمسلمين، نجح كثير من الأسرى في الهرب وذلك لقربهم من المناطق التي يسكنها مسلمون، وأحيانا لمعرفتهم الجيدة بطبوغرافية المنطقة. وحتى لو لم تكن المنطقة خاضعة للمسلمين، فإن السكان المحليين المسلمين كانوا يقدمون المأوى والطعام للأسير الهارب ويتسترون عليه، ويسهلون له مهمة الهرب إلى الأراضي الإسلامية (كاهن، ١٩٩٥مم: ٢١١).
وهناك العديد من القصص التي ترويها المصادر العربية واللاتينية بإعجاب حول تمكن بعض الأسرى من الفرار. وهذا النوع من القصص كان يحفز الأسرى على الهروب من ناحية، ويثير فضول القراء الذين يتعاطفون دوما مع الطرف الضعيف، ولا تخلو بعض تلك القصص من العناصر الدرامية، ومن الإثارة التي تضيف مشهدا يقارب المعجزة (Friedman ,2002:13)
يروي لنا فوشيه قصة هروب أسقف الرها بأسلوب اسطوري يتسم بتمجيد الحدث، وينسبه إلى تدخل إلهي، كما يمزج فيها عناصر غير ظاهرة لكنها تلعب دوًرا هاًما في إثارة وجدان القارئ والمستمع أيضا، كعناصر التضحية، والسلاسل الثقيلة، والفارس الفرد أمام جمع الجنود، وهو العنصر الذي يخلق مساحات أسطورية من الشجاعة في خيال الجمهور المستهدف.
يقول فوشيه في روايته التاريخية:
" إن الرب ساعد أسقف الرها الذي كان مقيدا بالسلاسل، وبمساعدة فارس شجاع خاطر بحياته. وبمشيئة الرب، انتشل الأسقف من أيدي الأتراك بشجاعة فائقة تثير الإعجاب. حيث أن الفارس رأى أن إنقاذ الأسقف أهم من حياته " (Fulcher,n.d:179).
بالنسبة للمصادر الإسلامية، نجد فيها عددا من القصص التي تعرض طريقة هروب الأسرى بإعجاب، لكن لا نرى فيها العنصر الخيالي أو حتى التدخل الإلهي كما هو الحال في المصادر اللاتينية.
يروي لنا أسامة بن منقذ قصتين تتعلقان بهروب الأسرى. أولها قصة تتعلق بأسير كان مسجونا في جب في بيت جبرين، بين القدس وغزة، وهو ابن حاكم سيناء، وقد حاول أن يفتدي نفسه لكنه لم يفلح، فتم إنقاذه على يد بدوي حفر خندقا للوصول لمكان السجين. استطاع البدوي بعد خمسة أشهر من الوصول إلى الأسير في الجب، وقال له: " قم والله لي خمسة أشهر أحفر هذا السرداب "، ويقول الأسير: " وكسر قيدي وأوصلني إلى بيتي " (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ١٠٣).
وهناك قصة أخرى تتعلق بمجموعة من الأسرى الذين كان أسامة بن منقذ يفاوض الفرنجة على افتدائهم، إلا أنهم هربوا خلال الليل، وقد ساعدهم أن " سكان ضياع عكا كلهم من المسلمين، إذا وصل إليهم الأسير أخفوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام " (ابن منقذ، ١٩٣٠م: ١٠٥). وفي أثناء حصار عكا، يروي لنا ابن شداد، قصة هروب شيركوه الكردي من عكا التي كان فيها أسيرا (٥٨٦هـ/١١٩١م) فيقول:
" أنه كان قد ادخر حبلا في مخدته وكان الأمير ابن باريك ادخر له حبلا في بيت الطهارة، فاتفقا على الهرب، ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة، وانحدرا من السور الأول. وعبر شيركوه من الباسورة أيضا، وكان ابن باريك حال نزوله انقطع به الحبل ونزل شيركوه سليما، فرآه وقد تغير لونه من الوقعة، فلما كلمه لم يجبه، وحركه فلم يتحرك، فهزه عساه ينشط ويسير معه فلم يقدر... فتركه وانصرف. واشتد هربا في قيوده، حتى أتى تل الغياضة وقد طلع الصبح، فأكمن في الجبل حتى علا النهار، وكسر قيوده وسار، وستر الله عليه حتى أتى المعسكر المنصور في ذلك الوقت " (ابن شداد، ٢٠٠٣م: ٣٣٥).

الخاتمة:

وهكذا، نجد أن كلا المجتمعين المتحاربين اضطرا للتعامل مع قضية الأسرى طوال فترة الحروب الصليبية، ليس بالوسائل العسكرية فقط، بل كان للدبلوماسية والمفاوضات دور كبير في ذلك. وسعى كل من المسلمين والصليبيين لإطلاق سراح أسراهم بكافة السبل المتاحة كالتبادل والفدية وغيرها. فعندما قدم الفرنجة إلى الشرق لم يعرفوا طريقة للتعامل مع الأسرى إلا القتل. ولكن بعد الاحتكاك مع المسلمين، الذين كان لهم باع طويل في استخدام الأساليب الدبلوماسية مع البيزنطيين لتحرير الأسرى عبر عدة قرون قبل قدوم الصليبيين للشرق، بدأوا بتقليد هذه الأساليب. وبالرغم من أن الفرنجة قد ترددوا

في البداية، فإنهم لم يكتفوا فقط بتبني الأساليب العملية لتحرير الأسرى، كاستخدام الفدية كما كان يحدث في الشرق لقرون طويلة، بل إنهم طوروا وسائل دبلوماسية واقتصادية لحل مشكلة الأسر بشكل تدريجي، وهذا يعكس تغيرا جذريا في طريقة معاملة الأسرى لدى الصليبيين خلال وجودهم في المشرق الإسلامي.

من جانب آخر، نرى أن المسلمين، وبعد احتكاكهم عن قرب مع الفرنجة، وما نتج عنه من ذعر ورعب نتيجة لمعاملة الصليبيين مع الأسرى والسكان المحليين، والمجازر التي ارتكبت مرارا وتكرارا، فقد ترتب على ذلك ردود فعل مماثلة من جانب المسلمين تجاه أسرى الفرنج ومستوطنيهم. بعبارة أخرى، يمكن أن نصل إلى نتيجة تؤكد أن الحروب الصليبية أدت إلى انتشار أفكار وممارسات متطرفة وقاسية لم تكن معهودة سابقا في المجتمعات المسلمة، وهذا يعد من الآثار السلبية التي نتجت عن الحملات الصليبية. فحسب القاعدة الفيزيائية كل فعل له رد فعل ، والعنف يولد العنف، والراديكلية التي ظهرت عند المسلمين كانت نتيجة من نتائج الحروب الصليبية، لم تنته بانتهاء الحملات، بل تركت تراثا مملوءاً بالشك وعدم الثقة بكل ما هو غربي، وهو تراث لا نزال نرى ونحصد آثاره حتى الوقت الحاضر.

أخيرا، وكما لاحظ القارئ، فإن موضوع الأسرى خلال الحروب الصليبية واسع ومتشعب، وكل عنوان فيه يستحق دراسة منفصلة. كما أن الموضوع ليس مطروقا، لذا حاولت عرضه بأوضح طريقة ممكنة، وهذا تطلب جهدا ووقتا طويلا. وإنني أعلم أن الدراسة قد غطت جوانب متنوعة ومتعددة عن الأسرى، وفي الوقت نفسه فتحت مجالات عديدة لمن لديه الاهتمام ببعض القضايا التي وردت في البحث، كموضع النساء الأسرى، أو وسائل التعذيب عند كل من الصليبيين والمسلمين، وما الحكم الشرعي في هذا الموضوع خلال فترة الحروب الصليبية. وأخيرا يبقى موضوع الردة عن الدين من الجانبين، خاصة عند المسلمين موضوعا لم يلق العناية الكافية، ومازال يشكل تحديا لمن يرغب في دراسته.

المصادر والمراجع العربية:

أولاً: المصادر:

ابن الأثير، عز الدين الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، ٢٠٠٣م، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت.

الأصفهاني، أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بالعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، ٢٠٠٣م، الفتح القسي في الفتح القدسي، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة.

البخاري، الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، د.ت، صحيح البخاري، المكتبة الثقافية، بيروت.

ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، ١٩٨٦م، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير، دار مكتبة الهلال، بيروت.

الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، ١٩٨٦م، معجم البلدان، دار احياء التراث العربي، بيروت.

أبو شامة، شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي (ت ٥٩٩-٦٦٥هـ/ ١٢٠٣- ١٢٦٧م)، ٢٠٠٢م، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن شداد، بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤)، ٢٠٠٣م، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دون دار نشر، دمشق.

الشيباني، أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد (ت ١٨٩هـ/ ٨٠٤م)، ١٩٧٥م، القانون الدولي الإسلامي- كتاب السير للشيباني، دون دار نشر، بيروت.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، ١٩٩٧م، كتاب الوافي بالوفيات، دون دار نشر، بيروت.

ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن (٥٢٤-٦١٧هـ)، ١٩٩٢م، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، دون دار نشر، دون مكان نشر.

ابن قدامة، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)، ١٩٦٩م، المغني، مكتبة القاهرة، القاهرة.

ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت ٥٥٥هـ/١١٩٠م)، ١٩٨٣م، تاريخ دمشق ٣٦٠-٥٥٥هـ)، دار حسان، دمشق.

ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، ١٩٩٩م، تفسير ابن كثير، دار طيبة، دون مكان نشر.

مسلم، الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، ١٩٩٨م، صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت.

المقريزي، تقي الدين ابو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (٧٦٦-٨٤٥هـ)، د. ت، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دون دار نشر، دون مكان نشر.

ابن منقذ، أسامة (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨ م)، ١٩٣٠م، كتاب الاعتبار، دون دار نشر، دون مكان نشر.

ابن النحّاس، أبو زكريا أحمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي (ت ٨١٤هـ/ ١٤١١م)، ٢٠٠٢م، مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام في الجهاد وفضائله)، دار البشائر الإسلامية، السعودية.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت٢١٨هـ/٨٣٣م)، د. ت، سيرة ابن هشام، دون دار نشر، دون مكان نشر.

ثانياً: المراجع:

حماد، منى، ٢٠٠١م، " وليام الصوري والصراع الفرنجي

الإسلامي"، بحث منشور في دراسات الجامعة الأردنية، عمان.
زكار، سهيل، ١٩٩٥م، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دون دار نشر، دمشق.
سميث، جوناثان ريلي، ١٩٩٩م، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
طلاس، العماد مصطفى، ١٩٩٣م، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مركز الدراسات العسكرية، دمشق.
عامر، عبد اللطيف، ١٩٨٦م، أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة.
عمران، محمود، ٢٠٠٨م، بحوث في العلاقات بين الشرق والغرب، دون مكان دار نشر، الإسكندرية.
قاسم، عبده قاسم، ٢٠٠١م، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية)، مؤسسة عين للدراسات والبحوث، القاهرة.
كاهن، كلود، ١٩٩٥م، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، دون دار نشر، القاهرة.
مقامي، نبيلة إبراهيم، ١٩٩٤م، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، دون دار نشر، القاهرة.

المصادر والمراجع الأجنبية:

Billings, Malcolm, 1987, The Crusades, New York.
Brundage,James , 1974, " Holy War and the Medieval Lawyers", in Holy War, T.P Murphy Ed), Colombus, Ohio.
Daniel, Norman,1976, The Arabs and Medieval Europe, London.
Edward ,Peters,1971, The First Crusades, Ed), Phildilphia.
Gesta Francorum,A. Krey, 1962, tr), London.
H. Gibb, 1932, The Damascine Chronicle of the Crusades, London.
http://www.britannica.com/EBchecked/topic/50076/Baldwin-IV.
Kedar, Benjamin,1990, " The Subjected Muslims of the Frankish Levant", in Muslims under Latin Rule, 1100-1300, James Powell ed), Princton.
Khadduri, Majid, 1955, War and Peace in Islam, Baltimore.
Lane-Pool,1908, History of the Latin Kingdom of Jerusalem, London.
M. Le Beaugnt, 1841, ed., Jean d'Ibelin Assizes de la autre Cour, vol. CCXL, Paris.
Munro, Dana, 1903, "Christians and Infidels in the Holy Land" in Essays on the Crusades, Vermont.
Nicholson, 1940, Tancred, A Study of His Career and Work University of Chicago.
Raymond Augliers, 1963, Historia Francurum qui Ceprunt Iherusalem,J.H. Hill and L. Hill trs Philadelphia .
Raymond D' Aguilers,1968, Historia Francorum Ceperunt Iherusalem, J. Hill, and L. Hill trs), Philadelphia.
Riley- Smith, Jonathan,1999 ,The Atlas of the Crusades, Oxford , New York.
Sivan, Emanuel,1971, "Beginnings of Fada'il al-Quds Literature", Israel Oriental Studies, I.
Sivan,E,1967, " Refugies Syro- Palestiniens au temps Croisades", Revue des etudes Islamiques, 35.
Stevenson,1968, The crusaders in the East , Cambridge.
Tudebode, Peter,1974, Historia de Hierosolymitano Itinere, J.H. Hilland and L.Hill trs.), Philadelphia.
William of Tyre,1943, The Deeds of the Franks Beyond the Seas, E.A. Babcock and A. C. Krey trs), New York.
www.Catholic Encyclopedia.com.
Yaacov Lev, 2001, "Prisoners of War During the Fatimid-Ayyubid Wars", in Tolerance and Intolerance; Social conflict in the Age of the Crusades, M.Gervers and J. Powell, eds), Syracuse.
Yvonne Friedman,1995, "Women in Captivity and their ransom" in Cross Cultural Convergences in the Crusader Period, M. Goodich, Sophia Menach and Sylvia Schein eds). NY.
Yvonne Friedman, 2002, Encounter between Enemies; Captivity and Ransom in the Latin Kingdom of Jerusalem, Brill.